

**جذور الفكر السياسي في العراق الحديث**  
**حركات الاستقلال المحلي في العراق ١٧٥٠-١٨١٧**

**الدكتور رياض جاسم محمد الأسدي**

**مركز دراسات الخليج العربي**

**جامعة البصرة**

**العراق**



## جذور الفكر السياسي في العراق الحديث

### حركات الاستقلال المحلي في العراق ١٧٥٠-١٨١٧

الدكتور رياض جاسم محمد الأسدي

مركز دراسات الخليج العربي

جامعة البصرة

العراق

#### مقدمة:

يتتبع هذا البحث محاولات الاستقلال المحلي في العراق، في العصر العثماني ١٧٥٠-١٨١٧م، بوصفها جذوراً تاريخية أساسية لانطلاقة حركة الاستقلال الوطني في بداية القرن العشرين، وهو يتناول طبيعة الصراع السياسي والعسكري بين القبائل العراقية والسلطة العثمانية في بغداد. ويحاول البحث أن يقدم صورة للتفكير السياسي الأولي للعراقيين في تلك الحقبة، فإن الدراسات المختلفة كانت تنظر إلى حركة القبائل العراقية نظرة سطحية لا تتخطى حدود الوثائق البريطانية والكتابات العثمانية؛ ولذلك يصب توجه هذا البحث في إعادة النظر إلى حركة تلك القبائل ودراسة دوافعها في صراعها ضد سلطة العثمانيين في بغداد.

إن محاولات الاستقلال المحلي في العراق ذات الطابع القبلي، لم تقتصر من وجهة نظري على تحقيق مغايم محدودة فحسب؛ بل اتخذت مسارات سياسية أعمق من ذلك

في أحيان كثيرة، كما أن طبيعة تلك الحقبة التاريخية والقيادات التي انبثقت عنها لم تكن تدرك معاني الوطنية العراقية على النحو الذي تكونت فيه إبان القرن العشرين، لكنها وبفعل وعيها المحلي وضعت الأسس لانطلاقة العراقيين وطنياً في القرن العشرين. ومن هنا فإن دراسة تلك الحقبة هي محاولات لفهم طبيعة الحركة الوطنية في العراق وجذورها التاريخية. ولذلك ينبغي النظر إلى تلك الأحداث بمنظار وضعها التاريخي، وإن نجد في تكويناتها ما نبحت عنه من جذور للفكر السياسي العراقي الحديث.

هذا البحث يعدّ باكورة عدد من البحوث لدراسة جذور الفكر السياسي في العراق الحديث ١٧٥٠-١٨١٧م، أملاً بأن يسهم بتواضع في سدّ جانب من مكتبتنا التاريخية العراقية.

### أوضاع العراق العامة ومحاولات الاستقلال المحلي الأول:

إن سنوات الاحتلال الصفوي للعراق وحروب استعادته من العثمانيين أورثت خراباً اقتصادياً واسعاً لبنيته وأحدثت خلخلة في تركيبه الاجتماعي. ولا شك بأن تعدد الولاة العثمانيين وتناوبهم على الحكم في بغداد وانصباب اهتمامهم على النهب وفرض الضرائب على السكان واستخدام القوة العسكرية لتحقيق ذلك قد جعل من البلاد عرضة إلى الانهيار الشامل، وأشاع نوعاً من الفوضى السياسية التي طبعت تلك الحقبة بطابعها الخاص. فيذكر على سبيل المثال توالي تسعة وثلاثين والياً عثمانياً على العراق في المدة ١٦٣٩-١٧٠٤م، أي بمعدل والٍ واحدٍ في أقل من سنتين... كما ساعدت في الوقت نفسه تمردات الجيش الانكشاري وما رافقها من أعمال حربية على تهديد طرق التجارة التقليدية، وخراب الريف، وإهمال السدود وقنوات الري مما عرض البلاد على نحو دائم إلى سلسلة من الفيضانات والأوبئة الفتاكة.

كوّنت مدة حكم والي حسن باشا الطويلة نسبياً ١٧٠٤-١٧٢٣م، نوعاً من الاستقرار السياسي النسبي إذا ما قورنت بالحقبة السابقة، كما أن امتداد استقرار الحكم النسبي

مدة حكم ولده أحمد باشا ١٧٢٣-١٧٤٧م، تعدّ نقطة تحول مهمة سمحت بقيام نوع من إدارات الدولة البسيطة مثل ديوان الباشا ومنصبي الدفتردار (يهتم بالإشراف على شؤون إدارة الولاية) ومنصب الخزنदार (يهتم بالشؤون المالية)، وكذلك نشأ نوع من العمران البسيط تمثل في بناء الجوامع والمساجد والسرايات (دور الحكم) والخانات والقلاع حيث قامت الأخيرة بدور مهم في الدفاع عن المدن والقصبات فضلاً عن كونها مركزاً للتجمع السكاني. كما أسهم تخفيف بعض الضرائب الباهظة على السكان بأثر إيجابي في ظهور مهن يدوية ومزاولة أعمال جديدة ناهيك عما بذله الواليان آنفاً الذكر من جهود حثيثة لترسيخ نظام حكم مركزي في العراق<sup>(١)</sup>.

ونتيجة عن استمرار نظام الحكم المركزي ازدياد واستغلال مختلف فئات الشعب على نحو أكثر اتساعاً، إذ ازدادت فئة الموظفين والضباط الأتراك، وأصبح الاعتماد على منطقة شمال العراق في رفد باشوية بغداد بالقوة العسكرية اللازمة لقمع تحركات القبائل ظاهرة شبه دائمة بسبب انتشار الإقطاع العسكري في تلك المنطقة<sup>(٢)</sup>. ولذلك تمكن أحمد باشا من أن يشن حرباً واسعة النطاق ضد فارس من خلال الاعتماد على القوة العسكرية المتوافرة في شمال العراق، حتى تمكن من السيطرة على همدان عام ١٧٢٧م، حيث تم بموجبه ضمّ المناطق الغربية والشمالية من فارس إلى الدولة العثمانية. ومن هنا فإن تطور القوة العسكرية في العراق قد وضع القبائل العراقية العربية، والكردية، وغيرها، أمام تحديات جديدة استلزمت اتخاذ خطوات محلية بإزائها. لكن ظهور نادر قلي، الذي عرف بنادر شاه فيما بعد ١٧٣١-١٧٤٧م، قد أحدث انقلاباً في الميزان العسكري في المنطقة حيث أصبح العراق مرة أخرى ساحة لعمليات نادر شاه، التوسعية وبؤرة لفرض سيطرته على المنطقة مما عرض قبائل العراق إلى كوارث سياسية واقتصادية واجتماعية. قامت أرتال القوات الفارسية النادرية باحتلال سامراء، والحلة، وكربلاء، والنجف، والحسكة (الديوانية)، (منطقة في الجزيرة على طريق النجف التجاري البدوي) كما حاصرت بغداد نفسها لمدة تربو

على سبعة أشهر متواصلة، حيث عانت البلاد من الفوضى والجوع وانهيار التطور البسيط الذي طالها في عهدي حسن باشا، وأحمد باشا. وعلى الرغم من اندحار قوات نادر شاه أمام جيش النجدة الذي أرسله الباب العالي للعراق وتقهقر القوات الفارسية إلى داخل بلادها، إلا أن نادر الشاه، الذي عُرف بعناده وإصراره على إحراز الانتصارات عاد كرة أخرى وهاجم جيش النجدة العثماني الذي كان بقيادة طوبال، وانتصر عليه في ساحة المعركة، حيث أرسل نادر شاه جيشه إلى بغداد. كان مقتل طوبال له وقع الصاعقة على باشوية بغداد، وتحصن أحمد باشا في قلعة بغداد في وقت اتجهت فيه أرتال من الجيوش إلى الموصل.

ضرب ثبات الموصل بوجه قوات نادر شاه مثلاً رائعاً في ضرورة الحفاظ على الأرض أمام الغزاة، وكان دفاع حسين باشا الجليلي وأسرته عن المدينة، دافعاً على إمكانية ردّ الغزو على أعقابهم إذا قدرت القوة المهاجمة — (١٠٥) ألف جندي و(١٢٠) مدفع هاون. واشترك الموصليون على اختلاف انتماءاتهم في الدفاع عن مدينتهم فأسهم المسيحيون بقسط في تحصينها إلى جانب المسلمين<sup>(٣)</sup>، وفي وقت عمد نادر شاه، إلى إرسال قوات عسكرية لمحاصرة البصرة بقيادة خواجه خان، قائد القوات الفارسية المرابطة في منطقة الحويزة، ثم التهيؤ لمهاجمة المدينة بأسطول بحري قوامه (١٢) ألف رجل. وحينما حاول المقيم البريطاني في البصرة دوريل Dorril تجنب إشراك السفن الإنكليزية في الدفاع عن المدينة كما هي سياستها في تلك المدة، ورغبة في عدم ارتباط المصالح البريطانية في الصراع العثماني- الفارسي، وما يمكن أن يعرضها إلى المخاطر، أمر دوريل فرقاطة Frigata الخاصة وهي سفينة مخصصة لاستخدام المقيم إلى مغادرة البصرة، لكن بحارتها- وكان جلهم من العرب- تمردوا على أوامر المقيم وعادوا بالسفينة إلى المدينة ليسهل أمر الدفاع عنها، فما كان من متسلّم البصرة علي باشا ١٧٤١-١٧٤٧م، إلا أن أمر بحبس دوريل،

قرب سور المدينة<sup>(٤)</sup>. وهكذا كان موقف البحارة العرب وجهاً من الشعور بالاستقلال والرغبة في الدفاع عن البصرة التي تعرضت إلى مخاطر الهجوم من البر والبحر. إن اغتيال نادر شاه عام ١٧٤٧ أدخل فارس، في فوضى سياسية وحرب أهلية شديدة، أبعدت العراق مؤقتاً عن مخططات الغزو الأجنبي، لكن وصول علي قولي خان، الذي تزعم حركة عسكرية للإطاحة بنادر شاه، جعل فارس، تخوض في صراعات داخلية مدة عقد من الزمن حتى انتهت به إلى مصير نادر شاه نفسه في صراع دام مع قاداته العسكريين<sup>(٥)</sup>، وما إن استتبّت الأمور لكريم خان الزند ١٧٥٧-١٧٧٩م، الشخصية العسكرية القوية حتى عادت فارس، إلى مخططاتها في غزو العراق من جديد، مما تطلب استعداداً إضافياً من السكان لمواجهة التحديات الفارسية مرة أخرى. ونتج عن عودة الصراع الفارسي-العثماني في السيطرة على العراق استمرار خراب أريافه ومدنه على نطاق واسع. ووجدت القبائل العراقية أن لا مناص من الدفاع عن حماها، أو قلاعها، فهي كانت بمثابة الوطن الصغير لها.

رأى المقيمون البريطانيون أهمية دفاع القبائل عن الأماكن المقيمة فيها، فكتب هنري مور Moore ممثل شركة الهند الشرقية الإنكليزية في البصرة ١٧٦٧-١٧٧٦م، إلى باشا بغداد، رسالة يشير فيها إلى ضرورة إيلاء القبائل العربية أهمية قصوى وذلك من خلال استخدامها في حماية ضفتي شط العرب، وإمكاناتهم في الدفاع عن مدنها فيه<sup>(٦)</sup>. وتعود تلك الأهمية إلى اعتماد القبائل العربية في جنوب العراق ووسطه، في تلك المدة على قيام أحلاف قبلية كبيرة كونت ثقلاً سياسياً واضحاً كحلف المنتفق، المكون من العشائر (بني مالك، بني سعيد، بني أجود) وحلف الخزاعل، وحلف شمر الجربة، وحلف العبيد، وهكذا وجدت باشوية بغداد صعوبة بالغة في إدارة تلك الأحلاف القبلية العريضة، ويعدّ النصف الثاني من القرن الثامن عشر بداية نوعية لظهورها<sup>(٧)</sup>.

كانت الأحلاف القبلية بؤرة أساسية لقيام حكومات محلية شبه منفصلة عن باشوية بغداد، ولاسيما في المدن الرئيسية الموصل، والبصرة، ونتج عن ضعف السلطة

العثمانية في بغداد وعدم عنايتها في أحيان كثيرة بالدفاع عن البلاد من الهجمات الفارسية المتكررة، رغبة متنامية للانفصال عنها. أما سلطة الباب العالي فلم تعرف باستيلاء الفرس على البصرة إبان حكم كريم خان الزند إلا بعد مرور أربع سنوات على تلك الحادثة! وكان من الصعوبة أن يرسل السلطان العثماني جيشاً لاستعادة ما اغتصب من ممتلكات الدولة لأن الجيش - غالباً - ما ينصرف قادتته إلى ممارسة شؤونهم الشخصية ومراعاة مصالحهم الخاصة. ومن المناسب أن نذكر أيضاً في هذا المجال شيوع تزيف الفرمانات الصادرة عن السلطان نفسه مما جعل الفرس يستغلون هذا الجانب من الفساد الإداري على نحو خاص، حيث كان لأحد الفرمانات المتعلقة بصلح السلطان مع الغزاة الفرس منح الأخيرين فرصة لسلب أهالي البصرة وقتل بعضهم اعتقاداً منهم باستتباب الأمن بعد فرمان مزيف<sup>(٨)</sup>.

شهد العراق في تلك الحقبة تكون حكومات محلية لكي يتمكن السكان من الدفاع عن أنفسهم. ورافق تلك الظاهرة محاولات الحكام ركوب موجة الاستقلال المحلي أيضاً وتحقيق أهداف سياسية على حساب السلطة العثمانية في الأستانة، فقد كان عدد من أولئك الحكام ينحدرون من أسر عربية<sup>(٩)</sup> كالجليلين في الموصل، أو من أسر كردية، كالبابانيين في شمال العراق. كما كونت الأحلاف القبلية الكبيرة من المنتفق، والخزاعل، وبنو لام، حكومات محلية مهمة وهي من أصول عربية خالصة. أما القبائل العربية الكبرى التي شكّلت حلف ذي الكفل بين شمر، وبنو لام، وساعدة، والشبل، وعشائر صغيرة أخرى فهي لا تقل أهمية في محاولات الاستقلال المحلي عن باشوية بغداد حيث تعاهدت تلك القوى العشائرية على مقاومة الحكومة المركزية في بغداد وعملت على خلخلة النظام الإداري البدائي فيها، سواء من خلال غاراتها الدائمة على طرق المواصلات التجارية أو تهديد الأمن بالقرب من باشوية بغداد مما حدا بالأخيرة أن تلجأ إلى القيام بأعمال "وحشية" لغرض إبادة تلك الأحلاف القبلية. وعلى الرغم من الآثار السلبية الناتجة عن تلك الحملات الحكومية إلا أن تلك الأحلاف



لا تلبث حتى تعود إلى ممارسة دورها السابق كبني لام، والمنفق، وشمر، والخزاعل، وغيرهم<sup>(٩)</sup>.

لا يمكننا النظر على أي حال إلى تلك الحركات في كونها مجرد تمردات عشائرية تهدف إلى السلب والنهب بالدرجة الأساس أو أن حركتها هي معارضة محدودة وقصيرة ضد باشوية بغداد وذلك لاتخاذها في أغلب الأحيان أبعاداً سياسية معينة وواضحة<sup>(١٠)</sup>. وأبدى حلف المنتفق مقاومة عنيفة في ذلك الاتجاه طوال القرن الثامن عشر تقريباً. ولذلك لن نتوقف باشوية بغداد عن تجريد الحملات ضد المنتفق على نحو شبه دائم. وكان شعار الحملات استيفاء الضرائب المترتبة عليها، ولكن الدوافع الأساسية كمنّت في محاول إخضاع ذلك الحلف القبلي الكبير سياسياً وعسكرياً وصولاً إلى فرض سيطرة الحكم في بغداد على تجمعات قبلية أقل شأنًا.

وأظهرت قبائل المنتفق مقاومة عنيفة ضد الاحتلال العثماني طوال القرن الثامن عشر، فلم تتوقف باشوية بغداد عن إرسال الحملات العسكرية ضدها كلما سُنحت الفرصة بذلك. وإذا ما أمعنا النظر نجد أن سلطة بغداد ومتسلمية<sup>(١١)</sup> البصرة عَدَّ إخضاع حلف المنتفق القبلي هدف استراتيجي لهما. ومن الملاحظ أن حركات القبائل في تلك المدة ومعارضتها لباشوية بغداد قد اتخذت تحركات متقاربة زمنياً؛ وهذا يعني أن مُدَدَ الهدوء القصيرة ما هي إلا هدنات مؤقتة تعقبها دائماً حركات طويلة الأمد، ففي عام ١٧٦٣م، سار علي باشا الوزير على رأس حملة عسكرية لإخضاع بنسي لام الذين دأبوا على قطع طرق المواصلات وتهديد التجارة. وما إن انسحبت القوات القبلية التابعة لبني لام إلى عمق الأهواز في منطقة الحويزة حتى شارّت قبلية الخزاعل وأحلافها في العام نفسه ومنعوا مرور القوارب إلى نهر الفرات ما لم تدفع الرسوم المطلوبة إلى شيوخها. وحينما جرّد علي باشا حملة عسكرية ضدهم استطاعوا إلحاق هزيمة منكرة بقواته. لكن خليفة علي باشا في بغداد عمر باشا، سار إلى الخزاعل، على رأس حملة عسكرية كبيرة وحاصر مقرهم في "لملوم" في منطقة الفرات الأوسط

بانسحاب شيخهم حمود بعد إعدام (٧٠٦) من رجاله<sup>(١٢)</sup>، وفي عام ١٧٦٩م، انتفض المنتفقيون مرة أخرى ضد باشوية بغداد واستولوا على ضواحي البصرة ومنطقة القرية، بقيادة عبد الله شقيق سعدون باشا الذي أرسل إلى استانبول، وقد قطع رأسه بعد إلقاء القبض عليه من السلطات العثمانية. قام عبد الله بقطع طريق بصرة - بغداد التقليدي عبر دجلة والفرات. وكان سبب تلك الانتفاضة يكمن في رفض المنتفق دفع ضرائب متأخرة لباشوية بغداد أمدها تسع سنوات. وكما هي عادة باشوية بغداد في استدعاء القبائل العربية ضد بعضها أو ضرب القبائل الكردية، بالعربية، فقد تم الاتصال بقبيلة كعب ومقرها في المجرمة على ضفاف شط العرب، وقد استطاع الأتراك إقناع قبائل كعب<sup>(١٣)</sup>، بتجهيز حملة نهرية ضد المنتفق، تتكون من (١٥٠٠) مقاتل وقد استطاعت الحملة تحقيق هدفها إذ عزل الشيخ عبد الله واستعاض عنه بأخيه فيصل الذي كان موالياً لباشوية بغداد<sup>(١٤)</sup>.

نتج عن الحروب القبلية المستمرة واضطهاد السلطة العثمانية للقبائل في العراق، انهياراً متواصلاً لبنى الاقتصاد البدائي الذي كان يعتمد عليه السكان آنذاك، ولاسيما وسائل إنتاج الزراعة المتنقلة والمستقرة والرعي والصيد، وكان الفلاحون الذين يعتمدون استخدام المياه في فصل الربيع بعد ترسبات الطين "الدهلة" قد تعرضوا في تلك الحقبة إلى صعوبات جمة، ليس بسبب الفيضانات فحسب بل في الأوضاع القبلية الناتجة عن مطاردة السلطة العثمانية لهم. أما البدو، الذين كونوا نسبة كبيرة من السكان وهم سكنة بيوت الشعر فقد اعتادوا التنقل من مكان لآخر على طول الأنهر أو الاختباء في الصحراء في حالة تعرضهم إلى ضغط السلطة العسكرية العثمانية، مما تسبب في حدوث صدامات قبلية مستمرة<sup>(١٥)</sup>. ومن الصعب أن ترى أن مجمل تلك الأوضاع كانت بسبب "تمردات" تلك الشرائح الاجتماعية وعدم رغبتها في دفع الضرائب المفروضة عليها؛ إذ ظهرت - على سبيل المثال - لجنة تحقيق كوتها الباب العالي مباشرة للنظر في تلك الأحوال، ومسبباتها، إنها تقع في أغلب الأحيان على

المسؤولين الحكوميين العثمانيين بالدرجة الأساس وتعدياتهم على القبائل من خلال فرض ضرائب تتجاوز حدود صلاحياتهم، فضلاً عن قسوتهم المتناهية في التعامل مع القبائل العراقية على العموم وما ترتب على ذلك من تصادم عسكري دائم<sup>(١٦)</sup>، وكان من الصعوبة بمكان -في ظل تلك الظروف- قيام أي نوع من التطور الاقتصادي أو الاجتماعي بحكم سيادة النزعة التسلطية التركية واعتمادها أسلوب النهب الاقتصادي<sup>(١٧)</sup>.

إن تعرض السكان المحليين في العراق في تلك الحقبة إلى عمليات السطو والإفقار الدائم من العساكر العثمانية التابعة لباشوية بغداد ومطاردتهم للقبائل في البوادي القريبة والقصبات حتى إلى عمق الهور أحياناً قد أفقد الثقة بقوة بين السكان والسلطات الحاكمة، ولم تعد الروابط الدينية كافية لاستمرار النظام السياسي العثماني في العراق. وفي الوقت نفسه كان الأجانب المقيمون في العراق ولاسيما البريطانيين يتمتعون بامتيازات كبيرة، إذ أصدر جاردن، المقيم البريطاني في البصرة، أمراً لا يسمح فيه لأي إنكليزي السير على قدميه بأي حال من الأحوال، ولا بدّ له من ركوب حصان مطهّم بأفخر السروج، كما اعتاد الأجانب على العموم الظهور بالملابس التركية الفاخرة<sup>(١٨)</sup>. ومما لا شك فيه بأن العراقيين كانوا يلاحظون تلك المظاهر عن كثب فيكتشفون بأنفسهم مدى الفوارق الكبيرة بينهم وبين الأجانب المقيمين في بلادهم؛ بل وامتداد ذلك إلى شيوخ القبائل التي ينتمون إليها حيث تمتع الآخرون -أغلبهم- بامتيازات اجتماعية كبيرة في حين بقي السواد الأعظم من السكان يرزح تحت بؤس اجتماعي دائم، فلم يكن لدى العرب الرحالة غير شقّ من الوبر أما أولئك المستقرون من السكان فيمتلك القليل منهم "صريفة" من القصب أو البردي<sup>(١٩)</sup>، لكن تلك الأوضاع السيئة لم تمنع أحد الرحالة الإنكليز بارسونز Barsons من وصفهم بكونهم رماة من الدرجة الأولى وهم يمتازون بمراس صعب<sup>(٢٠)</sup>.

إن تصاعد نفوذ العثمانيين في العراق منذ منتصف القرن الثامن عشر وضع القبائل العراقية أمام صعوبات جديدة وأثقل كاهلها بأعباء متزايدة، وأصبح من الصعب - وهي التي تعتر بأنسابها - أن تتقبل تلك الطبقة العسكرية وأهدافها في الهيمنة على البلاد. وإذا كانت القبائل قد ساندت العثمانيين بهذا الشكل أو ذلك ضد الباب العالي أو الغزو الفارسي فإن ذلك يعود من وجهة نظرنا إلى عوامل الدفاع عن النفس بالدرجة الأساس، وكذلك لى تشابك المصالح الاقتصادية ولاسيما بين العثمانيين من جهة وشيوخ القبائل من جهة أخرى. وضحت تلك القبائل الحالة على نحو خاص بعد وفاة باشا بغداد أو سليمان باشا أبو ليلة عام ١٧٦١م، حيث سارع الباب العالي إلى تنصيب والٍ تابع له وهو سعد الدين باشا والي الرقة، لكن العثمانيين والقوى المحلية في بغداد عمدوا إلى تعيين والٍ من قبلهم وهو علي آغا قائد الانكشارية ليكون حاكماً على بغداد، فما كان من الباب العالي في ظل إصرار القوى المحلية إلا أن يرضخ لإرادة تلك الإدارة الجديدة حيث ترسخ وضع الاستقلال المحلي على نطاق أوسع.

لم تظهر بوادر الاستقلال المحلي في مواقف الحكام العثمانيين فحسب، وكذلك في مساندة القوى القبلية المحلية، بل امتاز ذلك الوضع في القرارات السياسية التي اتخذتها تلك القوى المحلية بإزاء الوجود الأجنبي في العراق آنذاك. وعلى الرغم من أن الولاة العثمانيين - على العموم - كانوا يظهرون نوعاً من الاحترام إلى الممثلات والقنصليات الأجنبية إلا أنهم غالباً ما كانوا يدخلون في صراعات شبه دائمة معها ولاسيما مع موظفي الهند الشرقية الإنكليزية وخدمهم<sup>(٢١)</sup>. كما بقيت المقيمة البريطانية تنظر بعين الحذر إلى ممارسات الباشوات العثمانيين وعدتها معادية لها في أغلب الأحيان. وضح ذلك إبان مدة حكم سليمان باشا حينما كان متسلماً للبصرة، وانعكست علاقته سلباً على الهولنديين ومقيميتهم فيها في محاولة منه لفرض سلطاته المحلية عليها. وما موقفه من البارون كنيغهاوزن Kinphausen إلا دليل على رغبته تلك، فقد فرض عليه غرامة مالية كبيرة وعرضه للإهانة العامة بعد ثبوت تورطه في جريمة أخلاقية مع إحدى

النساء المسلمات، ثم طلب سليمان باشا من كنيغهاوزن مغادرة المدينة. وبعد تنفيذ الأخير لأوامر المتسلم، عمد إلى غلق مصب شط العرب بسفن تابعة لمقيمه واستيلائه على سفينتين عثمانيتين<sup>(٢٢)</sup>. وعندئذ رضخ سليمان باشا إلى مطالب كنيغهاوزن بإعادة قسم من أمواله. كانت العوامل المالية تقوم بدور خطير في تغيير القرارات السياسية للحكام العثمانيين وقتذاك، كما إنها تدر عليهم أرباحاً طائلة بحكم مناصبهم الإدارية وفرضهم الضرائب على الواردات أو البضائع التي تمر من خلال الأراضي التي تقع تحت سيطرتهم<sup>(٢٣)</sup>.

كانت القبائل العربية في البصرة ذات استقلال فعلي في شؤونها الداخلية، وكذلك القبائل الكردية في الإمارة البابانية في شمال العراق. وقد لاحظ الرحالة بارسونز بأن الشيوخ والمتنفذين لم يكونوا يسمحون بالمرور حتى إلى ممثلي الباشا نفسه ما لم يدفعوا الضرائب القبلية المفروضة، وينطبق الحال أيضاً على أتباع الباشا أيضاً. وحينما زار بارسونز الشيخ تامر السعدون وجد أن حلفه القبلي (المنتفق) يغطي مساحة كبيرة من الأرض ويضم أعداداً كبيرة من السكان قياساً بنفوس العراق آنذاك - كما تتوفر لديه أنواع الذخائر والإمدادات ومواد التموين التي أكسبته استقلالاً ذاتياً شبه متكامل عن باشوية بغداد<sup>(٢٤)</sup>. وإن تلك الظاهرة لم تكن تطال المنتفق وحده، بل هي أوضاع متشابهة في كل أنحاء العراق تقريباً. فقبائل بني لام، والخزاعل، وشمّر الشمالية، وإمارة البابان، والجليليون في الموصل، يتمتعون باستقلال فعلي. ولذلك فإن باشوية بغداد لم تكن تنني عن تجريد الحملات العسكرية إلى كل جهات العراق شمالاً ووسطاً وجنوباً<sup>(٢٥)</sup>، لكت حركات الاستقلال المحلي استطاعت أن تستمر على الرغم من تلك الإجراءات ضدها تستمد قدراتها من بدايات إمكانيات اتفاقية بسيطة عملت على إنكاء حركات الاستقلال المحلي.

**العوامل الثقافية ودورها في حركات الاستقلال المحلي:**

ظهرت أشكال التعبير في رفض الوجود الأجنبي العثماني على نحو واضح في المدن الكبيرة نسبياً كبغداد، والبصرة، والموصل. وعلى الرغم من التوسع الكبير في استعمال اللغة التركية والفارسية في إدارة الدواوين والمراسلات الحكومية والتعامل اليومي مع السلطة إلا أن المدارس العربية بقيت تؤدي دورها الثقافي والتعليمي التقليدي في مناطق متعددة من العراق، إلى جانب النكايا والزوايا التي ما برحت تقدم خدمات تعليمية وثقافية لا يستهان بها في ظل انتشار واسع للأمية ومحاربة متواصلة للغة العربية، ولا شك بأن لظهور الطباعة دوراً كبيراً في تلك المدة إذ أنجبت أسراً علمية عراقية كآل الغرابي، وآل نظمي البغدادي، وآل الشهابي، والكعبي، وآل دملج، والشيخ دواد، وآل العمري في الموصل، وآل باش أعيان في البصرة<sup>(٢٦)</sup>.

وإذا ما تعمقنا في تلك الحركات الثقافية فإننا نجد الطابع العراقي في نشأتها وتكونها الأولي، وهي تعدّ ردّ فعل على استخدام الفارسية والتركية لغتين في إدارة الدولة، وفي الواقع إن الثقافة العربية العراقية كانت عاملاً غير مباشر في تكوين الدولة الصفوية<sup>(٢٧)</sup> في فارس نفسها، فقد اعتمدت الدولة الصفوية على الثقافة الدينية في العراق وسيلة لملء الفراغ الثقافي الديني فيها ولاسيما ما يتعلق بتأليف الكتب الدينية وأصول الفقه الإسلامي والتعليم الديني<sup>(٢٨)</sup>.

إن سلاطين وولاة آل عثمان الذين اصطفوا اللغة التركية وفرضوها على العرب لم يستطيعوا أن يمحوا التعليم بالعربية بأي حال من الأحوال سواء في مدن الحلة أو النجف، أو البصرة، أو بغداد نفسها، حيث مركز الحكم العثماني فيها، فقد ظهرت في بغداد أسر اضطلعت بمهمة نشر الثقافة العربية كآل الشاوي، الذين عملوا في إدارة الدولة ومارسوا رفد الحياة الأدبية في بغداد. أما في ولاية الموصل، فقد كانت مناوئة للحكم العثماني واستعمال اللغة التركية على نحو أشد؛ ففي مواقف الشاعر مصطفى الغلامي الموصلّي، (توفي في أواخر الربع الأول من القرن الثامن عشر ودفن في البصرة بالزبير) ما يدل على ذلك التوجه، ومن شعره:

(ما قولكم يا علماً (أدنة) في زمن لا يشبه الأزمنة  
ترعد من أنفاسه ركبتني ويقشعراً الجلد منه سته  
هذا وذو كركين أو ثالث يقول (بوقيش صاو جفركة)  
والترك إن تدنو منهم يبعدوا يصيحوا في غلمانهم (قاوسنة)  
وإن أعزوك بألفاظهم كانت ورب البيت مستهجنة<sup>(٢٩)</sup>

وتتضح سخرية العقل العراقي من المناصب العثمانية ذات الطابع التركي في (ذو كركين أو ثالث) وهي إشارة إلى عدم جدوى المناصب الحربية من خلال رؤية الشاعر لفراغها من محتواها الفعلي، أو أن أولئك الأتراك لا يشاركون في القتال إلا بعد المناداة على غلمانهم المماليك (كولمند) لردّ التحديات التي يواجهونها. ومن الطبيعي أن تطال سخرية الشاعر العراقي الألقاب الفخمة التي اعتاد الأتراك إطلاقها على غيرهم ويعدّها مستهجنة وغير حقيقية.

انتعشت الثقافة في تلك الحقبة من خلال ارتباطها بالحركة الفكرية في المدن، وازدادت أهمية علماء الدين والمتعلمين كقوة مؤثرة، كما أصبحت المدن العراقية مراكز جذب لفئات اجتماعية عديدة في القرى والأرياف المجاورة في محاولة للرقى الاجتماعي. وكانت تلك الفئات تجد في أوقاف المدارس والمساجد المخصصة لطلبة العلم الفقراء خير مجال للتوصيل إلى مناصب معينة في الدولة والمجتمع آنذاك. فظهرت فئات المدرسين في المدارس الدينية والوعاظ والخطباء في الجوامع الكبيرة. وكان من الطبيعي أن يرتفع شأن أولئك المتعلمين سواء لدى العثمانيين أو الأسر ذات النقل الاجتماعي والسياسي. وظهر آل جميل إلى جانب الشاعر مصطفى الغلامي، حسين العشاري، وعبد الرحمن السويدي، وعبد الحميد الشاوي، وعبد الغني آل جميل، وكانوا يؤكدون انتسابهم إلى العرب ويشكون سوء أحوالهم ما آلت إليه الأوضاع العامة من ضعف وانحلال. وقد شجعت الأسرة الجليلية في الموصل، أدباء وشعراء

ومؤرخين من أمثال محمد باشا، ونعمان باشا، وسعد الله باشا، وحسن باشا، ومحمد أمين باشا، وغيرهم. وشجع أولئك الولاة حركة التعريب من خلال تكليف عدد من الأدباء بنقل مؤلفات معينة من اللغتين الفارسية والتركية إلى اللغة العربية ومنح الجوائز لذلك. ومن الملاحظ في اهتمام الحكام باللغة العربية: أن المراسلات التي كتبت من نادر شاه باللغة العربية وليست بالتركية، أو الفارسية لغة المحتلين الأجانب. ثم أشار الرحالة ميزرا أبو طالب خان، زار الموصل عام ١٧٩٩ بالمستوى الثقافي الذي بلغه موظفوها قياساً بموظفي الباب العالي<sup>(٣٠)</sup>.

وانعكست الصراعات القبلية في تلك الحقبة والصراعات الأسرية داخل المدن على الأوضاع العامة في البلاد ولاسيما في صراعات العثمانيين أنفسهم حيث لم تدع التقلبات الدائمة وحالات عدم الاستقرار فرصة لظهور أدب واضح المعالم يعكس طبيعة الحياة السياسية والاجتماعية في العراق آنذاك. بيد أن انتشار تلك الأوضاع السيئة على العموم من تقطع طرق المواصلات واضطراب الأمن ألجأت بعض الولاة والأمراء وأهل اليسر من الأسر المعروفة، إلى تشييد المعازل، وبناء الخانات، مما جعلها تنتعش فيما بعد كحواضر<sup>(٣١)</sup>. لكن تلك الحالة لم تساعد على ظهور ثقافة واضحة المعالم.

ولاسيما إذا ما قورنت بالثقافة الشمالية من العراق. فالمعلومات عن الشعراء الكرد، حتى القرن الثالث عشر الهجري قليلة جداً، إذا ما قورنت بالثقافة المحلية في منطقة أخرى من العراق. ويرجع سبب ذلك إلى اعتماد الدولة العثمانية على الكرد، في رفد الناحية العسكرية واشتغالهم بها، وكذلك إلى عدم تدوين أسماء ومؤلفات الكرد وترجيحهم بلغات غير الكردية<sup>(٣٢)</sup>.

إن معارضة العراقيين للحكم العثماني، تمثل في رغبتهم في إدارة أنفسهم بأنفسهم؛ ومن هنا فإن حركات الاستقلال المحلي ما هي في مضمونها إلا تعبير عن تلك التوجهات؛ ولعل رفض العراقيين لفرض الضرائب هو أحد أنواع التعبير آنفة الذكر،



فقد جبل الولاية والموظفون العثمانيون في العراق على اغتصاب أموال العامة بقوة الجيش سواء في المدن أو الريف أو البادية، حتى أصبح ذلك الوضع محط مباحة بعض أولئك الحكام. إذ أعلن العديد منهم بأن ميزانية ولايته تقتصر على الواردات المتأتي من السكان وليس ثمة صفحة للمصروفات<sup>(٢٣)</sup>. ولا شك بأن تلك الحالة لم تكن تدعو إلى قيام أي نشاط ثقافي مهم في البلاد واقتصار الحالة الثقافية على السكان المحليين وحدهم.

لم تستطع قوة الولاية الحد من قيام حكومات وراثية محلية وجدت في موروثها القبلي وسيلة لمواجهة سلسلة الأوضاع المضطربة العامة، وحينما حاولت الاستانة إعادة سيطرتها على تلك المناطق بعد وفاة سليمان باشا عام ١٧٦٢م، جهزت لذلك الهدف ثلاثة قواد لاستعادة النظام العثماني التقليدي في العراق، واستبعاد الوالي عمر باشا الذي وافقت على تنصيبه حاكماً على القوى القبلية المحلية والعثمانية على حد سواء؛ والقادة هم: مصطفى باشا الابيناخجي، والي الرقة، وسليمان الجليلي والي الرقة وسليمان الجليلي والي شهرزور، وأوزون عبد الله باشا الطويل والي ديار بكر. ثم وصل القادة الثلاثة بغداد ناصبين معسكرات منفصلة حولها وخارج أسوارها عرض مصطفى باشا فرمانين لعزل عمر باشا، صادرين من الباب العالي، فما كان من الأخير إلا أن امتثل للأوامر السلطانية فأفرغ الخزانة وترك بغداد بعد أن خيم في الجانب الغربي منها، لكن مصطفى باشا، هاجمه على حين غرة وأرداه قتيلاً ليرسل برأسه إلى اسطنبول بعد ذلك<sup>(٢٤)</sup>. وتعكس لنا تلك الحادثة اهتمام الباب العالي في القضاء على محاولات الاستقلال المحلي في العراق. ونتج عن تلك الأوضاع المضطربة وتعدد مراكز القرار انتشار النشائس والخدع بين القادة الثلاثة أنفسهم، وانقسام الانكشارية بين مختلف الفرقاء المتصارعين، ومن ثم ولوج البلاد في فوضى شبه شاملة استمرت سنوات عديدة حتى وصول حسن باشا، ودخوله بغداد عام ١٧٧٨، بفرمان عثماني ١٧٧٨-١٧٨٠م<sup>(٢٥)</sup>.

وجدت قبيلة الخزاعل في اضطراب الأوضاع وتسلل الأعاجم إلى مناصب باشوية بغداد فرصة لممارسة نفوذها التقليدي حيث قامت بقطع طريق القوافل بين بغداد والبصرة من جديد مما تتطلب إرسال حملة عسكرية ضدهم<sup>(٢٥)</sup>، وازداد مركز حسن باشا اضطراباً لكون القوة العسكرية المراد لها ضرب الخزاعل غير مضمونة الولاء. وهكذا نشأت جماعة أخرى ضده بزعامه انكتخدا (نائب الوالي) السابق اسماعيل آغا. وفي آذار ١٧٧٩م، طلب السلطان العثماني عبد الحميد الأول ١٧٧٤-١٧٨٩م من حسين باشا الجليلي والي الموصل، إرسال قوة عسكرية إلى جنوب العراق. وبعد وصول أنباء تجهيز تلك القوة حضر رؤساء القبائل وأحلافها عام ١٧٨٠م، لغرض تعيينهم في وظائف شرفية تأكيداً لأهميتهم السياسية ودورهم في حكم المناطق الخاضعة لسيطرتهم ومنهم: الحاج سليمان زعيم العبيد ورئيس الأسرة الشاوية<sup>(٢٦)</sup>، والشيخ ثويني بن عبد الله رئيس المنتفق، والذي قام بعمليات عسكرية مهمة لصالح الدولة العثمانية ضد قبيلة كعب، ودفاعه في رد الهجوم الفارسي على الزبير عام ١٧٧٨م، وانكسار الجيش الفارسي الذي قدر بعشرة آلاف رجل وإبادته في منطقة "أبي حلانة".

لا يمكن تفسير الاتفاق بين الزعماء القبليين والسلطات العثمانية إلا في كونها من التوكيد الجديد على شرعية الحكومات المحلية، كما أنها عكست في الوقت نفسه الحاجة المتزايدة لأولئك الزعماء في الالتفات إلى دورهم السياسي المحلي. بيد أن باشوية بغداد، لم تلبث أن انقلبت على بعض أولئك الزعماء من أمثال الحاج سليمان واتهمته بالتآمر على الدولة<sup>(٢٧)</sup>. وقد نتج عن سياسة فقدان الثقة بالحكومات المحلية في العراق تهوي القبائل العراقية للتعبير عن نفسها في حركة مسلحة واسعة ضد السلطة العثمانية.

### الانتفاضة القبلية المسلحة في عام ١٧٨٧-١٧٨٨م:

بعد انتصار قبيلة المنتفق على قبيلة كعب عام ١٧٨٤م، تبوأ تلك القبيلة مكانة سياسية مرموقة باعتبارها مدافعة عن أراضي الدولة العثمانية بوجه مخططات الدولة الصفوية في فارس، وظهر ذلك الأمر على نحو واضح إبان تولي الشيخ ثويني بن عبد الله زعامة القبيلة<sup>(٢٨)</sup>، وأعلن في لوقت نفسه الشيخ محسن في الشامية، رفضه السيطرة العثمانية، ووقوف الخزاعل ضدها. وعلى الرغم من محاولات باشوية بغداد كبح جموح الشيخ محسن، من خلال إرسال الوفود السياسية إليه، إلا أن الأخير تحصن في منطقته واستعد للقتال بعد أن التفت حوله عشائر جديدة. لكن باشا بغداد عبد الله انتكخدا ١٧٧٥-١٧٧٨م، هاجم قوات الخزاعل ليلاً باستخدام المدفعية كما هي عادة الجند الأتراك وقتذاك، واستولوا على منطقتي الشامية والجزيرة<sup>(٢٩)</sup>، بيد أن الأخير لم يلبث أن أعلن رفضه السياسة العثمانية على الرغم من منصبه الجديد الذي عين فيه<sup>(٤٠)</sup>. ومن هنا يمكننا أن نرى مدى قوة الزعامات المحلية وتأثيرها في الأوضاع العامة للبلاد وسرعة انقلابها على السلطة المركزية.

بيّن ترمذ الخزاعل قدرة معارضة الحاج سليمان الشاوي زعيم العبيد وإخوته في بغداد نفسها، وتم ترحيلهم من قبل عبد الله الكتخدا حاكم بغداد إلى خارجها بعد مصادرة أموالهم الخاصة. وتزامن ذلك الوضع مع موجة من غلاء الأسعار، فذكر صاحب كتاب حديقة الوزراء، بأن وزنة الحنطة بلغت ثمانية قروش ووزنة الشعير خمسة قروش. وعلى الرغم من قيام الوزير بتوزيع بعض ما في المخازن من حبوب على السكان إلا أن شبح المجاعة ضرب أطنابه في بغداد<sup>(٤١)</sup>.

حاول الباب العالي تدارك تدهور الأوضاع السياسية في العراق من جديد من خلال العمل على إضعاف الباشوات العثمانيين في بغداد، والحد من نفوذهم العسكري والسياسي وذلك بتقوية الجليليين في الموصل والأغوات الأكراد في شمال العراق<sup>(٤٢)</sup>. لكن تلك السياسة جاءت بنتائج عكسية، إذ أصبح جنوب العراق مركز حركة انتفاضة مسلحة كبيرة للاستقلال المحلي عام ١٧٨٧م.

في نيسان عام ١٧٨٧م، وصل زعيم المنتفق ثويني بن عبد الله إلى بلدة الزبير، وعندما جاء متسلم البصرة إبراهيم بك ١٧٨٥-١٧٨٨م، مستوضحاً سبب وجود الشيخ ثويني في تلك المنطقة مع ذلك العدد الكبير من رجاله وأتباعه، عمد ثويني إلى اعتقال المتسلم وإيداعه رهن القلعة في المدينة، وفي الوقت نفسه قام فصيل آخر تابع للشيخ بالتقدم إلى سور مدينة البصرة فاحتل مقر المتسلم ودوائر الحكومة فيها ليمهد للشيخ ثويني دخولها. وبعد نجاح تلك العملية استقرّ الشيخ بالبصرة وكان أول عمل قام به استبداله الموظفين الأتراك التابعين للمتسلم السابق بموظفين معينين من قبله<sup>(٤٣)</sup>.

اغتمت الفرس فرصة تغيير النظام السياسي في البصرة فاستولى الأسطول على منطقة شط العرب لتهديد المدينة. لكن الفرس لم يستطيعوا دخول البصرة. ومن الجدير بالذكر أن الانتفاضة المحلية المسلحة في البصرة لم تحدث فيها أية أعمال عنف كما هو معهود في تلك الظروف، وتم احترام الملكية على نحو أكد ارتباط الحاكم الجديد بسكانها<sup>(٤٤)</sup>. ووقفت المقيمة البريطانية لشركة الهند الشرقية الإنكليزية موقفاً منوئاً لحكم الشيخ ثويني بن عبد الله في البصرة، ويعود سبب ذلك إلى تخوف النفوذ البريطاني من امتداد الانتفاضة إلى مناطق العراق كلها ولاسيما بعد انضمام الشيخ حمود الحمود زعيم الخزاعل إليها، وتحكمه بطرق المواصلات الحيوية بين بغداد والبصرة على طريق الفرات، وكذلك انضمام الشيخ الحاج سليمان الشاوي زعيم العبيد القريب من بغداد والذي ما انفك يحرض السكان ضد الحكم العثماني. وهكذا رأى البريطانيون في تلك الانتفاضة المسلحة في جنوب العراق وتحالفاتها القبلية الواسعة خطراً حقيقياً يهدد مصالحها الاقتصادية على نحو لم يسبق له مثيل، وعبر عن ذلك الموقف المقيم البريطاني في البصرة صموئيل مانستي ١٧٨٦-١٧٩٥م: "بأن الموقف لا يدعو إلى الاطمئنان على الإطلاق"<sup>(٤٥)</sup>.

وصف الرحالة البريطانيون أمير المنتفق وحاكم البصرة العربي ثويني بن عبد الله أنه رجل في منتصف العمر، شجاع كريم، وسريع الفهم؛ معتدل في حكمه وإدارته

للمناطق الخاضعة له. ولا شك بأن تلك الصفات يفتقر إليها متسلمو البصرة من الحكام العثمانيين. ووجد الأمير ثويني أن من الضروري إضفاء طابع الشرعية على حكمه المحلي وتحالفاته القبلية في جنوب العراق مع الخزاعل والعبيد وغيرهم، فكتب ثويني رسالة إلى الباب العالي ذكر فيها اللقب الذي أطلقه على نفسه "حاكم البصرة" ووعد السلطان العثماني عبد الحميد الأول، أن يكون تابعاً له وخاضعاً لحكمه بشرط الموافقة على تعيينه حاكماً على بغداد والبصرة معاً<sup>(٤٦)</sup>. ومن المناسب أن نقف قليلاً أمام عرض الشيخ ثويني على السلطان العثماني، لتبين أن موقفه لم يكن نابعاً من مصالح قبلية محلية ضيقة بعد أن اشترط ضمّ بغداد -مركز الحكم في العراق- إلى حكومته. كما أن حركة الاستقلال المحلي التي خاضها الأمير ثويني بن عبد الله ما هي في هدفها النهائي ومضمونها العام إلا محاولة لتسلم الحكم في العراق بأجمعه. وقد ظهر ذلك من خلال سياسة ثويني القبلية، وتحالفاته مع قبائل الفرات والمناطق المحيطة ببغداد.

وضع الأمير ثويني نظام حكمه بديلاً عن حكم الوزير العثماني في بغداد، وهي أول دعوة صريحة لقيام حكم محلي في العراق لكي يتسنى للعراقيين حكم أنفسهم بأنفسهم بعيداً عن الهيمنة الأجنبية. وقد لجأت السلطة العثمانية كعادتها إلى محاربة تلك الدعوة من خلال استدعاء أطراف قبلية أخرى ضدها ووعدتها بالمشيخة لها في حال انتهاء حكم ثويني<sup>(٤٧)</sup>. وهكذا حرصت السلطة العثمانية أحمد ثويني الأكبر على المطالبة بالمشيخة لنفسه حيث سافر الأخير إلى بغداد لعرض خدماته على السلطة العثمانية فيها واستقبل بحفاوة بالغة<sup>(٤٨)</sup>.

بدأت باشوية بغداد -كما هي عاداتها- بالإيعاز إلى أغوات شمال العراق من الأكراد في التحشيد والسير لقتال الخزاعل، والمنتفق، والعبيد، والقضاء نهائياً على انتفاضة الأمير ثويني بن عبد الله. واعتذر إبراهيم باشا، وعبد الفتاح باشا، عن تنفيذ الأوامر المناطة بهما بحجة وعورة الطريق ووجود مشكلات داخلية لهما في كردستان العراق.

واستاء حاكم بغداد سليمان باشا (الكبير) ١٧٨٠-١٨٠٢م، من موقف الأغوات الأكراد آف الذكر وأمر بعزلهما عن منصبهما، ووضع عثمان باشا آل محمود باشا، بدلاً عن ابراهيم وعبد القادر باشا ابن عم عبد الفتاح باشا بدلاً عن الأخير. ثم قدم عثمان باشا إلى بغداد وعسكر فيها بعد أن أمر أخاه عبد الرحمن بك بجمع أكبر عدد ممكن من المقاتلين في كردستان العراق، وإرسالهم إليه في أقصر مدة ممكنة. وما إن استكملت الاستعدادات العسكرية لذلك قاد سليمان باشا (الكبير) الحملة بنفسه. وكانت المهمة الأولى تتمثل في ضرب جموع وتحصينات الخزاعل في منطقة الفرات. وبلغ الخبر الأمير ثويني بن عبد الله زعيم المنتفق، فتهياً لمقابلة الجيش العثماني بحشد بلغ نحو عشرين ألف مقاتل بين فارس وراجل. ثم تجمع الجيش في مكان يدعى نهر عمر، لمدة ثلاثة أيام. وفي اليوم الرابع في غرة محرم عام ١٢٠٢هـ، بدأت المعركة الحاسمة بين الطرفين<sup>(٤٩)</sup>. واستطاعت القوات العثمانية في ٢٣ تشرين الأول عام ١٧٨٧م، الاشتباك مع قوات المنتفق، والقبائل المتحالفة معها وبعد قتال عنيف هزمت المنتفق يوم ٢٥ من الشهر نفسه وتفرقت قواتها لينسحب ثويني بن عبد الله مع ثلثة من رجاله إلى جوف الصحراء<sup>(٥٠)</sup>.

وأعلن أخو ثويني الأكبر أحمد، شيخاً على المنتفق، وتفكك الحلف القبلي الذي عكف ثويني على إقامته واستطاعت باشوية بغداد أن تفرض سيطرتها على جنوب العراق من جديد. ونتج عن تنصيب الشيخ أحمد، إرغام تجار البصرة على تقديم الهدايا والأموال له. كما ضوعفت العوائد المالية المترتبة على نقل البضائع في دجلة والفرات.

ووصف اثنان من الرحالة الإنكليز، المعركة التي دارت بين الأمير ثويني وباشا بغداد - وهما وليم فرانكلين E.W. Frankline وتوماس هاول Thomas Hiwel - بأنها مذبحة رهيبية لم يشهد لها مثيل، وكان الأخير قد تفقد ساحة المعركة بنفسه ووجدها مغطاة بعظام الرجال والخيول<sup>(٥١)</sup>.

إن استخدام القبائل الكردية في قمع حركات المعارضة المسلحة ضد السلطة العثمانية يعود إلى عهد السلطان مراد الرابع ١٦٢٣-١٦٤٠م، حيث تم تقسيم منطقة شمال العراق إلى سناجق منفصلة يحكمها بيكوات بالوراثة كنوع من الإقطاع العسكري كما مر بنا<sup>٥٧</sup>، وكان تعيين أولئك البيكوات هو من مهام الوزير في بغداد. وهكذا حاول أولئك البيكوات الأكراد في أحيان كثيرة التسابق لتقديم ولائهم لباشا بغداد عند الحاجة إليهم. وكان من السهولة أن يتم عزلهم من قبله وتنصيب بديل عنهم في حالة تلوؤهم. ومن هنا فإن استمرار استخدامهم لقمع حركات المعارضة المسلحة أصبح تقليد شبه سياسي في تلك المدة من تاريخ العراق الحديث. بيد أن الإقطاع العسكري الذي درجت عليه المنطقة الشمالية من العراق أصابه نوع من التخلخل بعد الانتفاضة المسلحة عام ١٧٨٧-١٧٨٨م. ومن مظاهر ذلك الاتفاق الذي أجراه مصطفى بك الكردي عام ١٧٨٨م، مع شيخ المنتفق الجديد أحمد، في محاولة أخرى من الاستقلال لتحرير العراق بأكمله - هذه المرة - من الاحتلال الأجنبي العثماني وبالتعاون مع عثمان باشا حاكم السليمانية<sup>(٥٧)</sup>، ومن الملاحظ أن تلك الظاهرة من التحالف الواسع على النطاق الوطني تأتي ردة فعل طبيعية على الانكسار الذي أصاب الانتفاضة المسلحة آنفة الذكر والتي قادها الشيخ ثويني بن عبد الله.

اجتمعت القوات العثمانية من جديد للانتفاض على محاولة الاستقلال الوطني والتقت مع العرب، والأكراد، الحلفاء في موقعة "العرجة" على الفرات، واستطاعت إلحاق الهزيمة بهم، وتفرقت الجموع القبلية العربية والكردية، حيث هرب مصطفى بك الكردي، لاجئاً إلى الكويت، في حين تم الحد من فعالية عثمان باشا حاكم السليمانية، ومساومته على اتخاذ مواقف إيجابية تجاه باشوية بغداد، إن تلك التحركات الوطنية ذات الطابع القبلي البدائي لم تستطع الوصول إلى أهدافها المعلنة لضعف التخطيط والتنفيذ وطبيعة القوى المحلية التي تحركها الأطماع الشخصية في أغلب الأحيان بحكم المرحلة التاريخية ذات الطابع الإقطاعي، وما رافق ذلك من ازدياد للنفوذ البريطاني

والفرنسي ذوي التوجهات التبشيرية والرفض المحلي لها من السكان<sup>(٥٣)</sup>. فتعاظم حركة التبشير في تلك المدة ولاسيما البعثات الموفدة من الكنائس الانكليكانية البروتستانتية، والكاثوليكية، وظهرها على نحو واضح في بغداد من خلال المقيمة البريطانية، والمبشر كروفر Groves الذي سمح ولأول مرة ببيع أنجيل وفتح مدرسة للبروتستانت في بغداد، ناهيك عما تبع تلك الحركة من انتشار في البصرة والموصل على حدّ سواء<sup>(٥٤)</sup>، وما رافق ذلك من رفض لها من السكان المحليين.

وكتب صاموئيل مانستي المقيم البريطاني في البصرة ١٧٨٦-١٧٩٥م، إلى جاكوب باسנקويت Jacop Basanquet مدير اتحاد شؤون التجار البريطانيين في غرب الهند موضعاً دور بعثات التبشير البروتستانتية في العراق، وإمكانية قيام علاقات تجارية مع باشوية بغداد، ودعم جهوده في ذلك المجال، على الرغم من سوء الأوضاع السياسية التي أعقبت انتفاضة عام ١٧٨٧-١٧٨٨م<sup>(٥٥)</sup>. كما لاحظ الرحالة الفرنسي سيو أوليفر Oliver الذي زار العراق في عام ١٧٩٦-١٧٩٧م، استمرار تدهور الأوضاع المالية لباشوية بغداد وفرض الضرائب الباهظة على السكان، واستخدام القوة العسكرية من قبل حاكم بغداد التي قدرها بـ (٦٠٠٠) رجل و(١٢٠٠) فارس من الترك، فضلاً عن أعداد لا يمكن تحديدها تقبع في أماكن مختلفة من العراق من الانكشارية<sup>(٥٦)</sup>. وبعد إضافة قوات الإسناد من كردستان العراق، تقدر قوة باشوية بغداد بـ (٤٠-٥٠) ألف رجل، يمكن لباشا بغداد أن يجمعها دون أن تتكبد خزينته نفقات كبيرة. ومن هنا فإن استمرار الصراع العسكري والسياسي بين القبائل العراقية الطامحة إلى الحكم المحلي وباشوية بغداد يعدُّ أمراً لا مفرّ منه. وما مدة الهدوء النسبية التي أعقبت انتفاضة ١٧٧٨-١٧٨٨م، فهي ناتجة عن انشغال الدولة العثمانية بحروب ضد روسيا والنمسا. بيد أن حملة نابليون على مصر ١٧٩٨-١٨٠١م، وما أعقبها من ظهور لمحمد باشا في مصر، وقيام ابنه ابراهيم باشا بفتح بلاد الشام، قد أحدث نوعاً من إعادة التفكير السياسي لدى القبائل العراقية آنذاك ولاسيما النظر في



المتغيرات المهمة خارج العراق في تلك المدة بالذات. ولعل تلك الأحداث هي التي دفعت بعض الباحثين في تاريخ العراق الحديث إلى القول بانتقال وعي العراقيين من الشؤون المحلية لى "الوعي القومي"<sup>(٥٧)</sup>.

إن تطور الوعي السياسي في العراق الذي تمثل في استمرار الصراع بين القبائل العراقية، والسلطة العثمانية في بغداد، وتعاضم الخارجية المحيطة بالعراق شرقاً وغرباً قد جعل من القبائل العراقية تواجه تحديات جديدة في الدفاع عن أراضيها وعن نفسها أيضاً. وقامت التحصينات في المدن بدور كبير في رد الاعتداءات الخارجية عنه، فقد أفرزت بدايات القرن التاسع عشر مهمات سياسية جديدة للقبائل العراقية لم تكن تضطلع بها من قبل ولاسيما الدفاع عن المقدمات الدينية للعراقيين مما بلور نوعاً من الوعي الوطني لدى تلك الشرائح الاجتماعية لم يسبق أن مارسته من قبل.

### دفاع القبائل العراقية عن المقدسات الدينية:

منذ عام ١٧٩٥ بدأ الوهابيون بشن غارات على أطراف الجزيرة العربية في محاولة لنشر دعوتهم والحصول على مغنم مادية في الوقت نفسه<sup>(٥٨)</sup>، وكان الشيخ ثويني بن عبد الله قائد انتفاضة عام ١٧٨٧م، من أوائل من أنبروا لصد العدوان الوهابي على مدن العراق في النجف، وكربلاء، بعد صدور العفو عنه وعودته إلى دياره في المنتفق. وجمع الشيخ ثويني جماعته من القبائل المتحالفة معه في منطقة الجهراء في منطقة الكويت التي هي بمنزلة حصن من الجص الأبيض صغير للدفاع عن حصن منطقة الزبير من هجمات البدو وكذلك دفاعاً عن سور دون الكويت أيضاً.

كدس ثويني البارود والرصاص في الجهراء، وجهاز اسطولاً من السفن الكويتية والبصرية، لحمل جيشه إلى القطيف حيث تقاطر عليه الرجال من الزبير والكويت والبحرين. ووصل جيش ثويني بن عبد الله إلى الإحساء في تموز عام ١٧٩٧م، لكن الوهابيين استطاعوا تدبير مكيده له وتمكنوا من اغتياله، وعندئذ تفرق شمل الجيش وعادت المجموعات القبلية إلى ديارها. ومن الصعب التأكد من شخصية القاتل. لكنه

بلا شك من أتباع الوهابيين<sup>(٥٩)</sup>، واستطاعت القوات البدوية الوهابية مطاردة الجيش المنسحب والجماعات المتفرقة وإلحاق هزائم منكرة لها، وعلى الرغم من السخط والغضب الذي انتاب باشا بغداد سليمان (الكبير)، وتوعدّه بالانتقام من الوهابيين إلا أن المخاطر في مهاجمة العراق من قبلهم بقيت ماثلة وراء الحدود.

وكانت باشوية بغداد على العموم -وبحكم العلاقات السلبية الدائمة- لا تتشقق بالقبائل العراقية وبدورها في الدفاع عن البلاد ولاسيما تلك القبائل التي دخلت الباشوية في صراعات طويلة كشمر، والخزاعل، والمنطق، وغيرها، وكان لسوء إدارة العثمانيين للمناطق القريبة من بغداد والمدن الدينية المقدسة (النجف و كربلاء) من أفدح النتائج، فقد تركت الحلة، وهي مدينة على الطريق بين بغداد والمدن المقدسة من غير تحصين يمكنها من الدفاع عن نفسها في حالة تعرضها لهجمات وهابية محتملة<sup>(٦٠)</sup>. وكتب هارفرد Harford Jones المقيم البريطاني في بغداد عام ١٧٩٨-١٨٠٦م: "إن الحكومة هنا لا تهتم كثيراً بتحسين مدينة الحلة"<sup>(٦١)</sup>، ولا شك بأن إهمال تلك المناطق قد جعلها عرضة للهجوم الوهابي العنيف بعد أن أصبحت عرضة لصعاليك البدو "الزكاريات"، الذين يفرضون الأتاوات على أصحاب البساتين في كربلاء، وغالباً ما كانوا ينهبون التمر منها ويحاصرون المدن أحياناً دون أن تردعهم باشوية بغداد حتى أصبح الغزو مهنة يرتزقون منها<sup>(٦٢)</sup>.

وحيثما استطاع الوهابيون غزو كربلاء، ونهب كنوز مراقدها المقدسة وقتل أهلها، ثم تحركت قواتهم نحو النجف، هبت قبيلة الخزاعل للدفاع عن المدينة واستطاعت صدهم عنها وألحقت بالوهابيين (٣٠٠) قتيل<sup>(٦٣)</sup>. ومن الملاحظ في تلك المدة أن القبائل العراقية كانت تصطف مع باشوية بغداد في حالة تعرض العراق لغزو أجنبي سواء من فارس أو الوهابيين، وقد عملت تلك الحالة على تقوية الشعور بالذات العراقية من خلال الدفاع عن الأرض والسكان.

ولكن طبائع حكم العثمانيين في العراق هو العودة سريعاً إلى ممارسة سياساته السابقة المتعلقة بالتعسف والتكثيف بالقبائل العراقية الحليفة خوفاً من امتلاكها مساحة سياسية تتناسب ودورها في الدفاع عن بلدها من مخاطر الغزو الأجنبي. وتعود تلك الظاهرة إلى فقدان الثقة دائماً بين المحتلين الأجانب والسكان المحليين، وكذلك إلى طبيعة تركيب الإدارة التركية وقياداتها العسكرية واحتكار المناصب فيها<sup>(٦٤)</sup>؛ والعمل على إبعاد زعماء القبائل عن أية إدارة محلية إلا للعمل على استتباب الأمن. وفي الواقع أن الروح العسكرية العثمانية المشبعة بالنزعة الاستعلائية والنظر إلى القبائل العراقية نظرة دونية لم يترك مجالاً بأي حال من الأحوال لاستمرار التعاون بين الطرفين.

ونتج عن تلك السياسة أن اصطف الانكشارية مع السكان المحليين أيضاً لتشابك المصالح الاقتصادية بينهما ولاسيما في حالات الدفاع ضد الغزو الأجنبي وارتباط الأخيرين بالسكان على نحو أكبر من باشوات بغداد، فضلاً عن الصراعات التي كان يثيرها الانكشاريون، من وقت لآخر ضد السلطة المركزية العثمانية، وما رافقها من أعمال عنف دموية. وأصبحت الأهازيج المحلية طريقة للتعبير عن رفض الغزو الأجنبي للعراق بكل أشكاله ولاسيما تلك الأهازيج التي تردد في المدن والقصبات<sup>(٦٥)</sup>.

وأصبح العراق إلى جانب اهتمام الدول المحيطة به محط اهتمام فرنسة ومخططاتها التوسعية، ولذلك فقد عمدت بريطانيا، إلى عقد معاهدة مع الدولة العثمانية عام ١٧٩٩م<sup>(٦٦)</sup>، حيث تم بموجبها إمداد حكومة بومباي لسليمان باشا (الكبير) بكثير من الأسلحة والذخيرة بثمن الكلفة، اعتقاداً منها بإمكانية مواجهة المخططات الفرنسية آنفة الذكر. كما طلب باشا بغداد من بريطانيا تزويده بعدد من رجال المدفعية الهند المسلمين لتعليم جيشه التقليدي<sup>(٦٧)</sup>. وقد ساعدت تلك المساعدات على تقوية النظام السياسي الذي تفرغ نسبياً إلى ترميم بعض محلات بغداد، وتشديد السرايات، وتعمير أسوار الجانب الثاني من المدينة، وحفر الخنادق الدفاعية، فضلاً عن بناء مدرسة باسم الباشا "المدرسة السليمانية" وإنشاء مدرستين أخريين في جامع الفضل وجامع

القبلائية<sup>(٦٨)</sup>. لكن تلك التطورات البسيطة لم تطل غير بغداد، جاءت وفاة سليمان باشا (الكبير) عام ١٨٠٢م، بداية حقبة جديدة من الصراع على السلطة، وسيادة الفوضى، وعودة القبائل العراقية إلى محاولاتها السياسية في الاستقلال المحلي.

## الأوضاع السياسية في العراق ١٨٠٢-١٨١٧ وحركات الاستقلال المحلي:

أحدثت وفاة سليمان باشا ١٧٨٠-١٨٠٢م، فوضى سياسية في حكومة بغداد العثمانية، ونتج عن ذلك قيام صراعات مسلحة بين جماعات انكشارية ذات الولاءات العسكرية المتعددة وعلي باشا اكتخذاً "نائب الوالي" ١٨٠٢-١٨٠٧م، إذ استطاع الأخير الحصول على "قرمان" بتعيينه وزيراً حاكماً في بغداد عام ١٨٠٣، بعد إرساله الهدايا المناسبة إلى الأستانة كما هي التقاليد المعمول بها آنذاك. لكن مدة حكم علي باشا اتسمت بالاضطرابات المستمرة فضلاً عن شخصيته المتشددة والصارمة، مما حدا ببعض عبيده الخاصين أن يتآمروا على اغتياله تخلصاً من سطوته وعنفه.

واستطاع القنصل البريطاني والعاملون معه من مساعدين وخدم في الحصول على امتيازات إبان فترة حكم علي باشا وأواخر سني حكم سليمان باشا (الكبير). فقد نتج عن فشل الحملة الفرنسية على مصر تصاعد النفوذ البريطاني في العراق على نحو أكبر من السابق. وكان لاستمرار الامتيازات التي حصل عليها البريطانيون في العراق بعد ذلك، المتمثلة في شكل إعفاءات ضريبية وإلغاء المكوس، ظهور القنصل البريطاني جونز Jones بمظهر اجتماعي وسياسي جديد؛ إذ كان يشاهد من قبل سكان بغداد حاملاً سيفه مع حرسه الخاص وهو يرتدي عمامة بيضاء، كما كان له حق التنقل في تلك الهيئة في مختلف مناطق العراق<sup>(٦٩)</sup>. وقد كثفت شركة الهند الشرقية الإنكليزية في تلك المدة من إجراءاتها للحيلولة دون اتخاذ أي عمل مضاد لها من قبل النشطاء الفرنسيين في العراق. لكن القنصل البريطاني جونز، الذي كان يراعى المصالح البريطانية في شركة الهند الشرقية لم يخف قلقه من احتمالات التغيير

السياسي المفاجئ في بغداد على الرغم من التزام باشويته برعاية المصالح البريطانية التجارية فيها ولاسيما إبان حملة نابليون على مصر<sup>(٧٠)</sup>. وفي الواقع إن تلك المخاوف لم تقتصر على الموقف السياسي في بغداد وحدها، بل طال إمكانية اتخاذ فرنسا إجراءات ضد متسلمية البصرة أيضاً، ولذلك فقد صدرت الأوامر إلى متسلم البصرة بوضع سفينتين وطرادين، لحمايتها من أي هجوم خارجي محتمل، والعمل على استتباب الأمن على طريق البصرة - بغداد، والموصل - حلب<sup>(٧١)</sup>.

وجدت القبائل العراقية نفسها في قلب الأحداث في بداية القرن التاسع عشر، إذ أصبح طريق المواصلات التجارية والبريدية إلى أوروبا عرضة للمخاطر، ناهيك عن دوره في نقل أخبار الصراع البريطاني/الفرنسي للاستيلاء على الشرق في هذه المدة<sup>(٧٢)</sup>. ولم تستطع الدولة العثمانية التي أصبحت ممتلكاتها ميداناً لذلك الصراع الاستعماري الكبير أن تكون طرفاً فاعلاً فيه ففقدت فاعليتها السياسية وعوامل مبادرتها الضرورية مما حدا بها أن تلتزم سياسة دفاعية فقط لم تنثر في أفضل الأحوال إلا عن تنازل الدولة العثمانية عن بعض ممتلكاتها لصالح الدول الأوروبية، وقد تمثل ذلك الوضع على نحو واضح في معاهدة الدردنيل، التي أعقبت الحرب البريطانية-العثمانية ١٨٠٧-١٨٠٩م<sup>(٧٣)</sup>.

وازداد النفوذ الفرنسي في البلاط العثماني بعيد الحرب البريطانية - العثمانية على نحو كبير إذ لم تفلح السياسة البريطانية على العموم في الحد من نشاطه وبات من الممكن الحديث عن تقارب فرنسي - عثماني في عهد السلطان محمود الثاني ١٨٠٨-١٨٣٩م، حيث استطاعت فرنسا في عهده أن تساعد على تعيين سليمان الصغير ١٨٠٨-١٨١٠م، والياً على بغداد من خلال شفاعات السفير الفرنسي لدى الباب العالي الميسو سباستياني Sbastiani مما دفع سليمان الصغير، إلى الوقوف بوجه النفوذ البريطاني والحد من نشاطاته إلى حد ما في عموم العراق<sup>(٧٤)</sup>. بيد أن مدة حكم سليمان الصغير لم تستطع أن تبني سياسة لفرنسة واضحة المعالم في العراق، فضلاً

عن التطورات الداخلية في فرنسا التي انتهت باندحار بونابرت، ومجيء حكومة عانت من مشكلات داخلية كثيرة. وقد واجه سليمان باشا الصغير اضطرابات في المنطقة الشمالية من العراق ولم تكن تحت سيطرته ما يكفي من القوات النظامية العثمانية لمواجهتها. وحينما شاعت أخبار عن إمكانية وصول قوات وهابية جديدة إلى الحلة، لم يكن أمام باشا بغداد الجديد إلا أن يعتمد إلى الأهالي في إثارة نخوتهم والاعتماد عليهم لصد الهجوم المحتمل. بيد أنه وبعد إرساله عدداً من سرايا استطلاعها لتقصي حقيقة الوضع له أن ليس ثمة ما يؤكد ذلك فعاد إلى بغداد بعد أحد عشر يوماً من النقصي<sup>(٧٥)</sup>. وتشير تلك الحادثة مدى تردّي الأوضاع العامة في بغداد والمناطق المجاورة لها ودور القوى المحلية في الدفاع عن أراضيها. كانت سياسة سليمان الصغير تتخذ من القمع العسكري والعنف المسلح وسيلة ضد القبائل العراقية كما هي عادة الحكومات العثمانية في بغداد. لكن ضعف قوات سليمان الصغير لم يسمح له بالقيام بأعمال واسعة في الجنوب كما هي حال أسلافه من باشوات بغداد. ولقد خشي سليمان الصغير من تعاضد الدور السياسي والعسكري للشيخ فارس رئيس عشائر شمر الجربا، كما سير أحياناً بعض قطاعاته لمطاردة الظفير المتقلبة من منطقة سنجار حتى رأس الخليج العربي. ويعود اهتمام سليمان الصغير بتلك القبيلة على الرغم من ضعف قواته إلى إيلائها أهمية استثنائية بحكم موقعها القبلي، فهي تنتقل على مساحة واسعة من أرض العراق<sup>(٧٦)</sup>. وقد منح شيوخ الظفير إلى حد بعيد قدرة على معرفة أحوال الشعوب المحيطة بالعراق ولاسيما ما يتعلق بأطماع روسية وبريطانية فضلاً عن نقلهم الأخبار المتعلقة بشؤون الدولة العثمانية داخلياً<sup>(٧٧)</sup>.

اتخذ سليمان الصغير طريق رأس العين يتقدمه أحمد باشا متصرف ولاية الموصل، ومحمد بك متصرف كويسنجق، فضلاً عن قوات الشيخ فارس الجربا التي أشركها كإسناد له. لكن ذلك الحشد على العموم لم يستطع أن يحرز أي نصر عسكري على عشائر الظفير، التي عرفت بخفة حركتها وسرعة انتقالها من مكان إلى آخر فضلاً

عن قدرتها على التوغل عميقاً في الصحراء أن تطلب ذلك منها. وبلغ الحشد حدود ناحية ديرك في ديار بكر، لكن الظفير، وبحكم قدرتهم على المناورة كانوا في أقصى الجنوب وقتذاك. وهكذا لم تستطع القوات العثمانية الإحاطة بالظفير مما جعلها عرضة لهجمات خاطفة<sup>(٧٨)</sup>.

امتد الفضل السياسي والعسكري لسليمان باشا الصغير إلى ولاية الموصل، التي كانت تحت حكم الأسرة الجليلية، فقد استصدر باشا بغداد أمراً من الباب العالي بتعيين أحد أتباعه وهو أحمد أفندي حاكماً لولاية الموصل وكان مجرد كاتب في إدارة الجليليين، ورشحه سليمان الصغير بسبب خدماته له في مطارته الظفير بالدرجة الأساس. وكان الجليليون بزعامة أسعد بك الجليلي، يعتقدون بأحقيتهم في الاحتفاظ بالحكم بالمدينة بحكم الخدمات التي أسداها لها عبد الجليل بن عبد الملك، وهو نصراني على المذهب النسطوري اعتنق الإسلام في حدود سنة ١٦٢٠م، وتوارثت أسرته حكم المدينة وتساعد شأنها إبان حملة نادر شاه أفنة الذكر عليها. وقد استخدم أحمد أفندي وسائل البطش والتنكيل بإزاء القرى المحيطة بالموصل حتى اضطر الموصليون إلى مقاومته عسكرياً بمساعدة من الأسرة الجليلية، ومن ثم عادت السلطة إلى الأسرة الحاكمة السابقة ولم تجد محاولات سليمان باشا الصغير نفعا حتى أصبح محمود باشا الجليلي حاكماً للموصل<sup>(٧٩)</sup>.

حاول سليمان باشا الصغير وبعد فشله في الحد من حركة الاستقلال المحلي في الموصل، أن يثبت لنفسه ولأتباعه قدرة الحد من نفوذ ممثل شركة الهند الشرقية الإنكليزية حتى اضطر ممثلها في بغداد كلوديس جيمس ريتش Rich ١٧٨٧-<sup>(٨٠)</sup> ١٨٢٠م إلى مغادرة المدينة احتجاجاً على إجراءات سليمان باشا، ولم يصلإ إليها إلا بعد أن تعهد سليمان باشا الصغير بالنزول إلى مطالب الشركة وامتيازات ممثلها وعدم التدخل في شؤونها الداخلية. وكان السبب الرئيسي الذي حدا بسليمان باشا الصغير لاتخاذ ذلك الموقف يكمن في توسع دور الشركة في الحياة الاجتماعية في

بغداد، والنقاء ممثلي الشركة بوجهاء المدينة وكذلك بكبار الموظفين العاملين في الولاية. لكن تلك الأزمة لم تلبث أن انتهت بسرعة بعد عودة ممثل شركة إلى بغداد وتكرار سليمان باشا الصغير لطلب المساعدات المالية من ممثل الشركة الشرقية الإنكليزية من جديد<sup>(٨١)</sup>.

كان الصراع الدبلوماسي بين سليمان باشا الصغير وممثل الشركة الإنكليزية يقع في تقاطع نفوذ الرجلين السياسي في البلاد، فقد كان سليمان باشا شاباً في بداية العشرينيات من عمره، ولم يكن يملك ما يكفي من الخبرة السياسية والإدارية، وكذلك كلايوس جيمس ريتش كان شاباً مثله أيضاً حرص على الظهور بمظهر النقاليد الشرقية المفعمة بالتفاخر والأبهة الشخصية آنذاك، حتى أصبح السكان في بغداد يحتشون في الطرقات لمشاهدة ريتش، وملابسه الرسمية وخلفه الخدم والحرس<sup>(٨٢)</sup>.

وفي ظل ذلك الصراع الشخصي الذي عكس تردّي الأوضاع العامة في البلاد، حضر مبعوث الدولة العثمانية محمد سعيد بن حالت أفندي، لمقابلة سليمان باشا الصغير حاملاً رسالة من الباب العالي بعزل سليمان عن حكم العراق. فأخذ باشا بغداد يسوّف في تنفيذ الأمر للالتفاف عليه، لكن مبعوث الدولة حمله على مغادرة بغداد قسراً، إذ كثرت الشكاوي المرفوعة عنه لدى السلطان العثماني وما ألحقه بالسكان من أضرار في حملتيه على سنجار، والظفير، وكذلك عصيانه تنفيذ الأوامر السلطانية بعزله. وحاول سليمان اللجوء إلى الشيخ حمود الثامر السعدون، لكن عشيرة الدفاعة العربية، قطعت عليه الطريق واغتاله أحد رجالها ثم أرسل رأسه إلى بغداد<sup>(٨٣)</sup>.

حاول سليمان باشا الصغير في مدة حكمه القصيرة، أن يتقرب من عامة الشعب العراقي على الرغم من انتهاجه أساليب القمع المعروفة ضد القبائل العراقية العربية والكردية، لكي يثبت أركان حكمه الضعيف، فتقرب من رجال الدين من أمثال علي ابن محمد السويدي، وأشاع بأنه عباسي النسب وهو من أشرف العرب<sup>(٨٤)</sup>. وعكس ذلك الاهتمام من سليمان الصغير الأهمية البالغة التي اكتسبها تاريخ العراق وإصااق نفسه



بتاريخه وحضارته. وليس ثمة تناقض في شخصية سليمان باشا سواء في ميله إلى الدعوة الوهابية تارة، أو إلى الفرس تارة أخرى، أو الادعاء بأنه عباسي النسب؛ فقد كان ذلك الوزير طامحاً إلى الحكم بأيّة وسيلة مساعدة وقد أضفت قلة خبرته إلى التخبّط في مواقفه<sup>(٨٥)</sup>.

انضم إلى جانب محمد سعيد حالت أفندي، عدد من الشخصيات السياسية والإدارية المعروفة التي قامت بأدوار رئيسة في مدة حكم ما بعد مقتل سليمان باشا الصغير، ومن أهمها عبد الله آغا، وداود أفندي<sup>(٨٦)</sup>، اللذان وجدا في الفوضى السياسية التي أعقبت مقتل سليمان الصغير فرصة مواتية للقفز إلى سلطة بغداد، إذ حصل داود أفندي على منصب الدفتردارية وهو منصب إداري رفيع يتعلق بتنظيم شؤون الباشوية في بغداد، وكذلك عبد الله الذي حصل على منصب القائمقامية. ولما كان الأخير مستنداً إلى القوة العسكرية ودعمهم لشخصه فلم يجد محمد سعيد أفندي بداً من إملاء فرمان بتعيينه حاكماً لباشوية بغداد باسم عبد الله باشا<sup>(٨٧)</sup>.

أثبت داود أفندي قدرة متميزة على إرضاء مروضيه، وإمكانية جيدة في عقد تحالفات شخصية مهمة، ولقد بقي مخلصاً لعبد الله باشا حاكم باشوية بغداد لانحذارهما الاجتماعي المتشابه من (الديوشرمة): وهو نظام عسكري لجمع الصبية المسيحيين وإرسالهم جنوداً انكشارية بعد تحولهم إلى الإسلام وفصلهم عن عوائلهم. وكان للتعليم والتدريب الانكشاريين أثر بالغ في نمو وتطور شخصية داود أفندي الذي استطاع في مدة قصيرة أن يلفت إليه الأنظار إبان مدة حصار عبد الرحمن بك الباباني، في قلعة كفري، إذ كان داود على رأس القوة المرسلّة لتأديبه عام ١٨١٢م، ومن هنا فإن النصر الذي أحرزه داود على عبد الرحمن بك في موقعة قلعة كفري فقد كان على رأس القوة العسكرية المهاجمة، وأبدى من ضروب الشجاعة النادرة في القتال ما جعل منه موضع إعجاب العثمانيين. لكن خدمات داود آنفة الذكر لم تستطع على العموم أن تمنحه منصباً أعلى من الدفتردارية في باشوية بغداد، ولذلك كان لا بدّ له من أن يعقد

تحالفاً جديداً للوصول إلى منصب أعلى، وهكذا انغمس في الصراعات على تقسيم المناصب، فتحالف مع سعيد بك ابن سليمان باشا الكبير واحد المناوئين الرئيسيين لحكم عبد الله باشا في بغداد. وكان سعيد بك قد هرب إلى المنتفق للاستعانة بهم ضد حكم عبد الله باشا ١٨١٠-١٨١٣م، من خلال الاعتماد على الشيخ حمود بن ثامر السعدون زعيم المنتفق.

تكونت جبهة جديدة من حركات الاستقلال للإطاحة بحكم عبد الله باشا. وخرج المنتفقيون، وحلفاؤهم بقوة بلغت عشرين ألفاً من المحاربين المشاة والفرسان، لتلتقي في منطقة (غليون) على بعد مسار ساعتين من سوق الشيوخ. وعلى الرغم من الاستعدادات الكبيرة النهرية والبرية التي صاحبت حملة عبد الله باشا، إلا أنها لم تستطع الثبات بوجه قوات المنتفق ولاسيما بعد انضمام قسم من قوات عبد الله باشا إلى جانب سعيد بك بن سليمان الكبير، فقد كانت تكنّ الولاء لوالده<sup>(٨٨)</sup>.

بعد مقتل عبد الله باشا وأعوانه زحفت قوات المنتفق، بقيادة الشيخ حمود الثامر مع سعيد بك، وداود أفندي، إلى بغداد حيث دخلها جيش الأحلاف المحلية واستقبله الأعيان والرؤساء والعلماء في المدينة وسط احتفال مهيب. ثم كتبوا إلى الباب العالي طالبين الموافقة على تعيين سعيد بك حاكماً على بغداد<sup>(٨٩)</sup>، وبعد دخول القوات المنتفقية وحملها سعيد بك إلى أسنة حرابها من المظاهر الأساسية التي أعطت ثقلاً مميزاً للقوى المحلية ولاسيما القبلية في بناء الحكم في بغداد، ومنحتها دوراً أساسياً في اتخاذ القرارات الكبرى المتعلقة بمصير البلاد السياسي. وفي الواقع إن سعيد بك ابن سليمان الكبير ما كان له أن يصل مركز الحكم في بغداد لولا الاعتماد على القوى المحلية (المنتفق)<sup>(٩٠)</sup>.

وعلى الرغم من مجيء سعيد باشا إلى بغداد بقوة المنتفق، إلا أنه لم يستطع أن يقيم تحالفات متوازية مع قوى قبلية أخرى، ففي عام ١٨١٣م، تحركت قبائل الفرات الأوسط كالخزاعل وزبيد، والقبائل القريبة من بغداد كشمّر، والجربا، والظفير،

وقطعت طرق المواصلات من جديد، كما عملت تلك القبائل على محاصرة كربلاء أيضاً، مما اضطر سعيد باشا إلى إعادة داود أفندي إلى منصب الدفتردارية وكان قد أبعدته لتقليل نفوذه المتزايد في الباشوية، وقد استطاع داود أفندي بحكم خبرته الطويلة في التعامل مع القبائل العراقية<sup>(٩١)</sup>، حلّ بعض المشكلات التي تواجه الحكومة الجديدة ليعتلي بعد ذلك منصب (الكتخدا) نائب الوالي واحتفاظه بمنصب الدفتردارية في الوقت نفسه. فقام داود أفندي وكما هي عادة الحكام - بقلب ظهر المجن للقبائل العربية التي حملته إلى السلطة في بغداد مع سيده سعيد باشا، وشنّ حملة عسكرية على قبائل منطقة عفك عام ١٨١٤م، ثم عكف على تجهيز حملة أكبر ضد الخزاعل في الفرات الأوسط عام ١٨١٥م، كما انهمك على تفكيك عرى أحلاف قبائل المنطقة الغربية من العراق من خلال ضرب بعضها بالآخر. وحينما طلبت الخزاعل النجدة من حلفائها شمر، وزبيد، للاستعانة بهم ضد حملة داود أفندي عمد سعيد باشا إلى طلب معهونة قبائل المنتفق، والظفير، والعبيد ضدهم. ومن هنا فإن من أهم أسباب فشل حركات الاستقلال المحلي في العراق تكمن في إدخال العناصر الأجنبية طرفاً في الصراعات المحلية مما مزق عرى التحالفات القبلية وأبعدها عن إمكانية وصولها إلى هدف أكبر. نتج عن تلك السياسة المضطربة أن بدأ السكان بطرد الحكام أولئك المعينين من قبلهم حتى اضطربت الأوضاع العامة في بغداد نفسها، فقد لجأ سعيد باشا إلى الاقتراض من أثرياء بغداد ثم تلكأ في السداد مما أوجد حالة من ضعف الأمن في المدينة ولاسيما بعد نشوب شجارات عديدة بين فصائل عشيرة العقيل فيها فضلاً عن ظهور عصابات من اللصوص وقطاع الطرق في المدينة<sup>(٩٢)</sup>. وقد انتشرت الفوضى في مختلف مدن العراق كالنجف، وكربلاء، والحلة، وكركوك، وكثرت شكاوي الأهالي حول ذلك، ورفعت إلى الباب العالي ولاسيما بعد تولي حمادي بن أبي عقيل مناصب مهمة في بغداد، وهو المعروف بانحرافه الجنسي وتفضيل سعيد باشا له. وهكذا اجتمع الأعيان والأهالي ووقعوا "مضابط" لتعيين داود أفندي بدلاً عنه. لكن سعيد باشا استأنف محاول

دعم المنفق له، حيث جاء الشيخ حمود الثامر ناصباً خيامه على مشارف بغداد من الجانب الغربي دعماً لسعيد باشا. وخرجت تظاهرات في باب الشيخ تطالب سعيد باشا بالتناحي عن الحكم، وعندئذ تحرك محمد آغا ضابط الانكشارية وهجم على القلعة التي يتحصن بها سعيد باشا وأتباعه، واستطاع بعد مناوشات حامية من القبض عليه وإعدامه وإرسال رأسه إلى الاستانة حيث انفتحت أبواب الحكم على مصراعها أمام داود أفندي<sup>(٩٣)</sup>. كان حكم داود أفندي في باشوية بغداد يعني بداية مدة جديدة من الانتفاضات المحلية المسلحة في العراق.

### خاتمة:

محاولات الاستقلال المحلي في تاريخ العراق الحديث، هي بداية تجارب سياسية أصبحت بعد مدة من الزمن خزناً لانطلاقة حركة الاستقلال السياسي العراقية في القرن العشرين. وقد اتخذت حركات القبائل العراقية في المدة ١٧٥٠-١٨١٧م، مجاًلاً واسعاً في توكيد هوية العراقيين الوطنية على نحو نوعي. وإذا كانت تلك الحركات على العموم لم تستطع بناء دولة وطنية كما هو معروف، ولم ترتقِ إلى تحقيق الاستقلال الناجز عن الدولة العثمانية إلا أنها أرسيت دعائم وجود وطني محدد للعراقيين آنذاك، وأصبح تيارها القبلي -على ما يحتويه من تناقضات- بداية للتفكير الوطني آنذاك.

حاول البحث على العموم كتابة صفحة من تاريخ العراق الحديث من خلال وجهة نظر عراقية بعيداً عن الوثائق البريطانية وكتاب بريطانية، وكذلك صياغة تفسير عراقي بإزاء وجهة نظر الكتاب العثمانيين... وأحسب أن هذا البحث هو بداية لدراسة حقبة ما قبل إعلان الاستقلال الوطني في القرن العشرين، وأثبت البحث على نحو واضح أن مركز المعارضة القبلية للحكم العثماني لم يقتصر على وسط وجنوب العراق فقط، بل امتد إلى المنطقة الشمالية (ولاية الموصل بالذات) وكذلك بعض الاتجاهات لدى القبائل

العراقية والكردية أيضاً، ومن هنا فإن المعارضة القبلية المسلحة اتخذت إلى حد ما طابعاً وطنياً لا يمكن لأي باحث منصف التغاضي عنه.

إن انتشار ظاهرة الأحلاف القبلية الكبيرة في تلك الحقبة ومشاركتها في بناء الحكم في باشوية بغداد - إبان مدة حكم سعيد باشا - تؤكد على نحو لا يقبل الشك تصاعد التيار الوحدوي لدى العراقيين أكثر من أي وقت مضى منذ سقوط بغداد على يد الغازي هولاء عام ١٢٥٨م، ولذلك فإن التفكير السياسي للعراقيين كشعب موحد - من وجهة نظري المتواضعة - قد بدأ عام ١٧٥٠م، نوعياً في ظل الحكم العثماني للعراق الذي اتسم بطابع تعاضم حركات الاستقلال المحلي واتخاذها طابعاً سياسياً متطوراً نسبياً.

## الهوامش

- (١) للتفصيل ينظر: علي شاکر علي، تاريخ العراق في العهد العثماني ١٦٣٨-١٧٥٠م / ١٠٤٨-١١٦٤هـ، دراسة في أحواله السياسية (نينوى: مكتبة ٣٠ تموز، ط١، ١٩٨٥، ص ١٠١-١٠٢).
- (٢) الإقطاع العسكري شكل متطور عن عموم النظام الإقطاعي في أسية الوسطى وشمال العراق وسورية، لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، ترجمة عفيفة البستاني (موسكو: دار التقدم، دت) ص ١١-١٢.
- (٣) د، عماد عبد السلام، رؤوف، الموصل في العهد العثماني، النجف: مطبعة الآداب، ١٩٧٥، ص ٣٣٠.
- (٤) علي شاکر علي، المصدر السابق، ص ٢٠٤.
- (٥) محمد رسول هادي الكركوكلي، درجة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء، ترجمة موسى كاظم نورس، بيروت، ١٩٦٣م، ص ١٧-١٨.
- (٦) ينظر في نص رسالة مورفي الملحق رقم: CCHI, Mr. Moore's letter to the ١٧٧٤ ٢٠<sup>Th</sup> february pasha , dated the ٠ علاء الدين نورس، السياسة الإيرانية في الخليج العربي ابن عهد كريم خان زند ١٧٥٧-١٧٧٩، بغداد: معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٨٢م، ص ٩٧.
- (٧) Torn Nieu Wenhuis, Politics and society in early modern Iraq, Mumluk Pashas, Tribal shay Ks arid local rule between ١٨٠٢ and ١٨٣١ (London: Martinus Wijnhoff Pub, ١٩٦٢) P. ١٢١
- (٨) عثمان بن سند، مطالع السعود بطبيب أخبار الوالي داود، مخطوطة مكتبة الأوقاف، بغداد رقم (٣٢٠)، ص ١٢٨.
- (\*) تأسست الإمارة البابانية في أوائل القرن الثامن عشر نسبة إلى بابا سليمان. ينظر: محمد أمين زكي، خلاصة تاريخ الكرد وكردستان، مصر: مطبعة السعادة، ١٩٣٩م، ج ٢.

- (٩) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، بغداد: شركة التجارة والطباعة المحدودة، ١٣٧٢/١٩٥٣، المجلد الخامس، ص ٢٥٤.
- (١٠) يمكننا أن نرى ذلك في الأفكار التي أطلقها - على سبيل المثال - زعيم المنفق سعدون عام ١٧٣٨م، بعد استعادته البصرة، فقال: إنها ملكنا وليس للروم "العثمانيين" فيها شيء، عباس العزاوي، المصدر السابق، ص ٢٥٦.
- (١١) منصب تابع لباشوية بغداد ويعين من حاكمها مباشرة ويدعى متسلم البصرة.
- (١٢) ج. ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، الدوحة: طبع مطابع حاكم قطر، ١٩٦٧م، ج ٤، ص ١٨٠٨.
- (١٣) حول الدور التاريخي لإمارة كعب في القرن الثامن عشر، ينظر: د. علاء موسى كاظم نورس، و. د. عماد عبد السلام رؤوف، إمارة كعب في القرن الثامن عشر على ضوء الوثائق البريطانية، بغداد: دار الرشيد، ١٩٨٢م، ص ١١١، ٢٧.
- (١٤) لوريمر، المصدر السابق، ص ١٨١٠.
- (١٥) بصرة ولايتي سالنامه، دفعة ٣، (محفوظ)، جامعة البصرة، مركز دراسات البصرة برقم ٧٨٨٥ بتاريخ ٧/٢١/١٩٧٧م، ص ٣٠٠.
- (١٦) نظمي زادة مرتضى أفندي، كلشن خلفا، نقله إلى العربية: موسى كاظم نورس، النجف الأشرف: مطبعة الآداب، ١٩٧١م، ص ٣٠٠.
- (١٧) A. Bonne, State and Economic in the Middle East (London: ١٩٥٥) P. ١٨.
- (١٨) ج. ج. لوريمر، المصدر السابق، ص ١٨٣٢.
- (١٩) بصرة ولايتي سالنامه، دفعة ٢، المصدر السابق، ص ٩١.
- (٢٠) A. Parsons Travails in Asia and Africa (London, ١٨٠٨) P. ١٦٨.
- (٢١) د. يقظان سعدون العامر، نشاط شركة الهند الشرقية الإنكليزية في البصرة، جامعة البصرة: سلسلة تراث البصرة، ١٩٩٠م، ص ٤٦، ٧.
- (٢٢) لوريمر، المصدر السابق، ص ١٧٩٧.
- (٢٣) A. Parsons, Op. Cit, P. ١٨.

- (٢٤) Ibid, P, ١٧٣ - ٤
- (٢٥) لوريمر، المصدر السابق، ص ١٨٤٥-٦
- (٢٦) عباس العزاوي، المصدر السابق، ص ٣٠٨
- (٢٧) حول بدايات تكوين الدولة الصفوية ينظر على سبيل المثال:  
G.N. Curzon , Persia and Persian question Vol. ٢ (London, ١٩٦٦) ٣٣٠- ٤٦
- (٢٨) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية: نبيه أمين فارس ومدير البعلبكي، بيروت: دار العلم للملايين، ط٦، شباط، ١٩٧٤، ص ٤٩٨
- (٢٩) ابراهيم الوائلي، الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر، بغداد: مطبعة المعارف، ط٢، ١٩٧٨م، ص ٢١
- (٣٠) العراق في التاريخ، بغداد، ١٩٨٣م، ص ٦٣٢، ٣
- (٣١) السيد عبد الحسين الكيلدار آل طعمة، بغية النبلاء في تاريخ كربلاء، بغداد: مطبعة الإرشاد، ١٩٦٦م، ص ٢٨
- (٣٢) محمد أمين زكي، المصدر السابق، ص ١٨٨٧
- (٣٣) ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة: جعفر الخياط، بغداد ط٦، ١٩٨٥م، ص ٢١٨
- (٣٤) المصدر السابق، ص ٢٢٤
- (٣٥) لوريمر، المصدر السابق، ص ١٨٨٧
- (٣٦) لونكريك، المصدر السابق، ص ٢٤١
- (٣٧) الكركوكلي، المصدر السابق، ص ١٦٧، ٨
- (٣٨) لوريمر، المصدر السابق، ص ١٨٨٨
- (٣٩) لوريمر، المصدر السابق، ص ١٨٨٧
- (٤٠) الكركوكلي، المصدر السابق، ص ١٨٠
- (٤١) المصدر نفسه، ص ١٨٥
- (٤٢) Tom Nienwenhuis .OP. Cit, P. ١٠٥



- (٤٣) الكسندر أداموف، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، ترجمة د. هاشم صالح التكريني، جامعة البصرة، مركز دراسات الخليج العربي، ١٩٨٩م، ج ٢، ص ١٢٣ ص ٤٠.
- (٤٤) يقضان سعدون العامر، المصدر السابق، ص ٦٥.
- (٤٥) لوريمر، المصدر السابق، ص ١٨٨٩.
- (٤٦) المصدر نفسه.
- (٤٧) H. L. Hoskins, British routes to India ( London, ١٩٦٦) P P ٣٩- ٤٠.
- (٤٨) لوريمر، المصدر السابق، ص ١٨٩٠.
- (٤٩) الكركوكلي، المصدر السابق، ص ١٨٦-٧٠.
- (٥٠) H. L. Hoskins, OP. Cit., p. ٤١.
- (٥١) لوريمر، المصدر السابق، ص ١٨٩٠.
- (٥٢) الكسندر أداموف، المصدر السابق، ص ١٦.
- (٥٣) Tom Nieu wenhuis, OP. Cit., p. ٩١.
- (٥٤) سعد ابراهيم محمد، التبشير أحد أساليب التغلغل الأجنبي في العراق، مجلة الأمن والجماهير، العدد ٩، آب، ١٩٨٣م، ص ١٣.
- (٥٥) ١٠٠R: L/p+٥٩/٦ From manuel manesty to Jaccop Basa nguct chairmano of the Court of Dimeetous for Appairse ١٧٠٠ نسخة من مخطوطة من مركز دراسات الخليج.
- (٥٦) الانتشارية كلمة تركية تتكون من مقطعين "يكتجري" ومعناها العساكر الجديدة كونها العثمانيون في القرن الرابع عشر من فرق مشاة ومدفعية وتعدّ من أكبر القوات التي أسهمت في الفتوحات العثمانية في أوروبا ولاسيما حصار فيينا. ودبّ الانحلال والتفكك في الانتشارية منذ بداية القرن السابع عشر. حول دورها التاريخي. ينظر: دائرة المعارف الإسلامية، مادة انتشارية، ج ٣، ص ٧٨.
- (٥٧) يُقصد بالوعي القومي هو الوعي الوطني إذ ليس ثمة فصل بين ما هو وطني وقومي في تلك الحقبة التاريخية. د. علي الورد، لمحات اجتماعية من تاريخ

- العراق الحديث من سنة ١٨٣١ إلى سنة ١٨٧٢، بغداد، مطبعة الإرشاد، ١٩٧١م، ج ٢، ص ص ٣-٤٠.
- (٥٩) انظر على سبيل المثال: سنت جون فليبي: تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (السلفية) تعريب: عمر الديراوي، بيروت، ؟، ص ص ٣١-٥٠.
- (٥٩) لونكريك، المصدر السابق، ص ٢٥٧.
- (٦٠) انتشرت في تلك المدة المعازل على الطرق بين المدن المقدسة في محاولة لاستتباب الأمن ومراقبة الحدود من غارات البدو، لكن حكومة العثمانيين أهملتها حتى آلت إلى الاضمحلال مما حفز الوهابيين على المهاجمة، السيد عبد الحسين الكلدار آل طعمة، المصدر السابق، ص ٢٨.
- (٦١) لوريمر، المصدر السابق، ١٩٠٧.
- (٦٢) السيد عبد الحسين الكلدار آل طعمة، المصدر السابق، ص ص ٢٩-٢٠.
- (٦٣) الكركوكلي، المصدر السابق، ص ٢١٣.
- (٦٤) حول الطبيعة العسكرية للإدارة العثمانية يمكن الاطلاع على: رحلة نيبور إلى بغداد في القرن الثامن عشر، ترجمة عن الألمانية، سعاد هادي العمري، بغداد: دار المعرفة، ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م، ص ص ٥٢-٦٠.
- (٦٥) المصدر نفسه، ص ٥٠.
- (٦٦) حول تفاصيل المعاهدة ينظر: J.C.Hurewitz, The Middle East and North Africa in world politics, Aclocament recod (London Yale University Press, ١٩٧٥) P P. ١٢٦-٤٠.
- (٦٧) لوريمر، المصدر السابق، ص ١٩١٥.
- (٦٨) الكركوكلي، المصدر السابق، ص ٢١٩.
- (٦٩) لوريمر، المصدر السابق، ص ١٩٢٨.

I.O.R India Office Libraray and Records IAP+S\٩١٦, Fcom manuel (٧٠)

manesty to .Jacop: A ffair, ١٧٩٩ نسخة محفوظة في مركز دراسات الخليج

العربي.

(٧١) يقضان سعدون العامر، المصدر السابق، ص ص ٨٠-١٠١

(٧٢) عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا

إلى نهاية حكم مدحت باشا، القاهرة: دار الكتاب العربي، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٨م،

ص ١٤١٠

(٧٣) J. C. Hurewitz, OP. Cit., p. ٨٩-٩٠

(٧٤) الكركوكلي، المصدر السابق، ص ٢٤٣

(٧٥) عبد العزيز سليمان نوار، المصدر السابق، ص ١٤٢-١٤٣

(٧٦) حول أهمية الظفير: ينظر: عباس العزاوي، عشائر العراق، بغداد: شركة

التجارة للطباعة المحدودة، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م، ج ٤، ص ص ٨١، ٩٦، ١٠٥

(٧٧) عبد العزيز سليمان نوار، المصدر السابق، ص ١٤٥

(٧٨) الكركوكلي، المصدر السابق، ص ٢٤٥-٦

(٧٩) لونكريك، المصدر السابق، ص ٢٧٢

(٨٠) عمل ريتش كرحالة شهير في بداية حياته السياسية وممثلاً لشركة الهند

الشرقية الإنكليزية، وتعلم العربية والفارسية والتركية إلى جانب إجادته عدداً آخر

من اللغات الأوروبية، عمل في مصر وسافر إلى حلب متكرراً، ثم دخل مكة

وزار الكعبة ليرحل بعد ذلك إلى الهند عن طريق العراق، عيّن في العراق عام

١٨٠٨م، وكتب ريتش عن حياته ورحلاته. للتفصيل: سر وليس بدج، رحلات

إلى العراق، ترجمة فؤاد جميل، بغداد مطابع دار الزمان، ط ١، ١٩٦٦م، ص

٦٥٠

(٨١) الكسندر أداموف، المصدر السابق، ص ٨٥

(٨٢) وليس بدج، المصدر السابق، ص ص ١٩٥-١٩٨

- (٨٣) عباس العزاوي، المصدر السابق، ص ٢٠٠.
- (٨٤) عثمان سعد البصري، المصدر السابق، ص ٨٨.
- (٨٥) د. سليمان عبد العزيز نوار، داود باشا والي بغداد، القاهرة، دار الكتاب العربي، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، ص ٤٩.
- (٨٦) انحدر داود أفندي من أسرة كرجية مسيحية تسكن مدينة تفليس، وولد في حدود سنة ١٧٧٤م، من أب يدعى بطرس على الأرجح. وفي العاشرة من عمره اختطفته جماعة من النخاسين وجاءت به إلى بغداد حيث بيع كرقيق إلى سليمان الكبير. د. سليمان عبد العزيز نوار، داود باشا، المصدر السابق، ص ٥٠.
- (٨٧) المصدر نفسه، ص ٥١.
- (٨٨) الكركوكلي، المصدر السابق، ص ٢٥٩.
- (٨٩) المصدر نفسه، ص ٢٦١.
- (٩٠) Tom Nieuwenhuis, OP. Cit., p. ٨٨.
- (٩١) د. مهدي جواد الحبيب، الصراع العثماني - الفارسي، وأثره في العراق حتى أواخر القرن التاسع عشر، في الحدود الشرقية للوطن العربي، دراسة تاريخية، بغداد: دار الحرية، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص ٩٢.
- (٩٢) لونكريك، المصدر السابق، ص ٢٨٢-٢٨٣.
- (٩٣) الكركوكلي، المصدر السابق، ص ٢٧٤.

## المصادر

١- الوثائق غير المنشورة:

- بصرة ولايتي سالنامه، دفعة ٢ و ٣، محفوظ في مركز دراسات البصرة برقم ٧٨٨٥ بتاريخ ١٩٧٧/٧/٢١ م.

- I. O. R. India Office Library and Reccords L/p+s/q/٦

٢- الوثائق المنشورة:

J.C.Hurewitz, The Middle East and North Africa in world politics, Adocument recod (London Yale : University Press, ١٩٧٥)

٣- الكتب المترجمة:

(١) ابن سند، عثمان، مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود، محفوظة مكتبة الأوقاف، بغداد، رقم ٣٢٠.

(٢) الكسندر أداموف، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، ترجمة د. هاشم صالح التكريتي، جامعة البصرة، مركز دراسات الخليج العربي، ١٩٨٩ م، الجزء الثاني.

(٣) بدج، سير واليس، رحلات إلى العراق، ترجمة فؤاد جميل، بغداد، مطابع دار الزمان، ط١، ١٩٦٦.

(٤) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، بيروت: دار العلم للملايين، ط٦، شباط، ١٩٧٤.

(٥) جبيب مهدي جواد، (الدكتور) الصراع العثماني - الفارسي وأثره في العراق حتى أواخر القرن التاسع عشر، في: الحدود الشرقية للوطن العربي، دراسة تاريخية، بغداد، دار الحرية، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م.

(٦) العامر، يقضان، (الدكتور) نشاط شركة الهند الشرقية الإنكليزية في البصرة، جامعة البصرة، سلسلة تراث البصرة ١٩٩٠.

(٧) العزاوي، عباس، تاريخ العراق بين احتلالين، بغداد، شركة التجارة للطباعة المحدودة، ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٣ م.

- (٨) ، عشائر العراق، بغداد شركة التجارة للطباعة المحدودة، ١٣٧٥هـ / ١٥٦م، ج ٤.
- (٩) علي، شاكِر علي، تاريخ العراق في العهد العثماني ١٦٣٨-١٧٥٠م، ١٠٤٨-١٦٦٤هـ، دراسة في أحواله السياسية، نينوى، مكتبة ٣٠ تموز، ط ١، ١٩٨٥.
- (١٠) رحلة تيبور إلى بغداد في القرن الثامن عشر، ترجمة عن الألمانية سعاد هادي العمري، بغداد/ دار المعرفة، ١٣٧٤هـ / ١٩٥٤م.
- (١١) رؤوف، عماد عبد السلام (الدكتور) الموصل في العهد العثماني، النجف: مطبعة الآداب، ١٩٧٥م.
- (١٢) زكي، محمد أمين، خلاصة تاريخ الكرد وكردستان، مصر: مطبعة السعادة، ١٩٣٩، الجزء الأول والجزء الثاني.